الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: الأدب العربي

الموضوع:

النزعة الصوفية في الشعر الأمير عبد القادر

إعداد الطالب (ة):
بوعزي فاطمة الزهراء

إشراف:
د/ أحمد بشيري

لجنة المناقشة		
أ.الدكتور	ياقوت نور أحمد	رئيسا
أ.الدكتور	زوبير أحمد إبراهيم	ممتحنا
أ.الدكتور	بشيري أحمد	مشرفا مقررا

العام الجامعي : 1438-1439/2016-2017

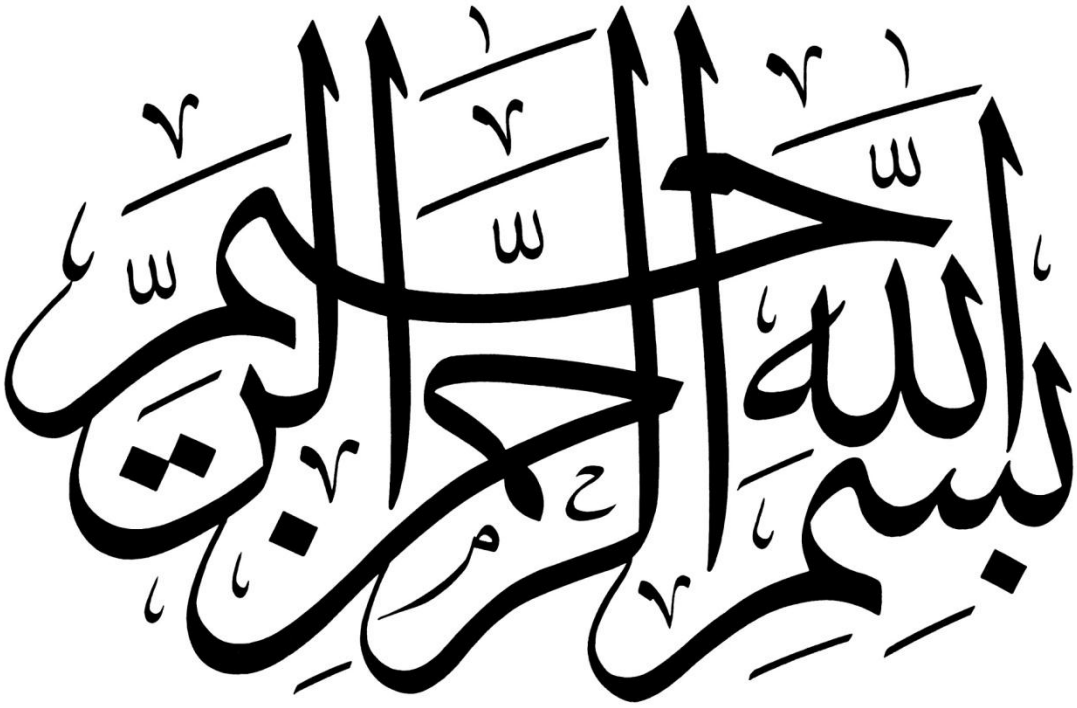
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

" ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصّالحين "

سورة النمل الآية 19

إهداء

أهدي هذا العمل المبارك إن شاء الله

إلى من جعل الله الجنة تحت قدميها.....أمي

إلى أبي رحمه الله وأدخله فسيح جنانه

إلى إخوتي أحمد ومحمد ويونس وخديجة وكل أفراد عائلة بوعزي وإلى كل

صديقاتي الغاليات وإلى كل أساتذتي وزملائي بقسم اللغة العربية وآدابها.

كلمة شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الخالص لأستاذي المشرف "بشيري أحمد" الذي قدم لي يد المساعدة وأرشدني إلى الطريق السليم، أشكره على صبره وتحمله لهفواتي.

كما أوجه شكري للأساتذة المناقشين الذين تقبلوا بصدر رحب مناقشة هذه المذكرة وتحملوا أعناء قراءتها ،فليتقبلوا مني فائق التقدير والاحترام والأكيد لا أنسى شكري الخالص إلى كل من وقف بجانبي وساعدني خاصة صديقة حليمة التي وقفت معي وقفت أخت وزميلتها هدايات

فهرس الموضوعات

فهرس:

مقدمة

المدخل:ماهية التصوف

مفهوم التصوف 01

التصوف الإسلامي 05

التصوف في بلاد المغرب..... 07

مفهوم التصوف عند الأمير 11

الفصل الأول:التعريف بصاحب المدونة

المبحث الأول: الأمير عبد القادر شاعرا ومجاهدا

أصل الأمير وأسرته 14

نسبه 15

مولده ونشأته..... 15

شيوخ الأمير وأئمته..... 17

بناء الأمير لدولته 20

وفاته 23

آثاره 25

المبحث الثاني: شعر الأمير عبد القادر :..... 30

معالم شعر البنيوية 32

الأغراض التي نظم فيها الأمير 33

الفصل الثاني: التصوف في شعر الأمير عبد القادر

المبحث الأول :الأسباب التي دفعت الأمير إلى إتباع طريق التصوف. 46

النزعة الإنسانية 46

انتماؤه إلى آل بيت النبي 47

تربية الدينية الصوفية 48

إيمانه الشديد بالقضاء والقدر 48

محاربته التقليد والمقلدين 49

تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد استسلامه 50

المبحث الثاني : المراحل التاريخية لتصوف الأمير 51

المرحلة الأولى :مرحلة التلقن والتعلم والمطالعة 51

المرحلة الثانية :مرحلة الفتوة والمرابطة 52

المرحلة الثالثة :مرحلة التأمل والتفكير 53

المرحلة الرابعة :مرحلة النضج والتعبير 54

المبحث الثالث :مقامات الأمير وأحواله ومجاهداته 55

مقامات الأمير..... 56

أحواله 57

مجاهداته 59

الرموز الصوفية عند الأمير..... 64

الفصل الثالث :تحليل بعض قصائد الأمير الصوفية

أنا مطلق 72

يا عابد الحرمين 80

أنا حق..... 81

أرى الذي أفناني 82

أيا أنا 83

تجلى له المحبوب 84

يا من غدا 84

خاتمة

فهرس المصادر والمراجع

مقدمة

مقدمة

الحمد الله الذي خلق العالم في أكمل صورة وصلى الله على المتجلي إليه والمبعوث في أكمل شريعة وأحسن سيرة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه،وبعد.

لقد نزع الإنسان منذ فجر التاريخ إلى البحث عن حقائق الوجود وأسراره ممتطيا في ذلك تأملاته ،وما يمنحه عقله من إمكانات لإدراك ظواهر الأشياء والعلاقة بين عناصرها ،وبما أن الإنسان يمتاز بطبيعيتين :إحداهما مادية وأخرى روحية ،فلا ريب أن الجانب الروحي قد أثبت حضوره ،ونشاطه في عملية التفكير والتأمل،من هذا المنطلق كان هدف الصوفي و مبتغاه بالنبض الروحي للوصول إلى حقيقة المنشودة ،وقد أهاب الصوفي بمعرفة الذات والكشف عن أسرارها ومعالجة أدوائها حينما أخذ بمجاهدة نفسه وعزلها عن المؤثرات التي يمكن أن تشغلها عن مطلبها.

ومن هذا المنطلق رأيت أن أدرس التصوف في شعر شخصية بارزة في عالم التصوف والأدب والفكر والجهاد وبهذا حددت الموضوع كالآتي:

" النزعة الصوفية في شعر الأمير عبد القادر "فقد عبر الشاعر الصوفي الجزائري عن خوالج نفسه ونوازغه الروحية وصور أحاسيسه ومشاعره تجاه خالقه هذا كله من خلال الشعر الذي يعد إحدى القنوات التي تساهم في إثبات تاريخ الأمم وتسجيل وقائعه فشعر الأمير الصوفي يحتل مكانة خاصة كما يمثله الأمير من رمزية على صعيد تاريخنا النضالي والقومي.

ولقد كان اختياري لهذا الموضوع مبني على سببين :سبب ذاتي :هو رغبتي الشخصية في معرفة عالم التصوف ،وآخر موضوعي: يتمثل في محاولة التعرف أكثر على التصوف عند الأمير عبد القادر الجزائري ،الذي يعد أحد أقطاب الطريقة القادرية والذي تلقن وتعلم وطالع مبادئ التصوف في المرحلة الأولى من مراحل حياته.

ولعل التساؤلات التي تطرح في هذا المقام تكون الإجابة عنها المحور الأساسي لهذا البحث :ما قيمة التصوف في حياة الأمير عبد القادر ؟ وهل عبر عن هذا التصوف في شعره ؟ وما هي أسسه ومظاهره ؟

وكل هذه التساؤلات أسعى لمعالجتها بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي الذي يرتكز على الموضوعية والتحقق من النظريات المطروحة فكان لابد من الاشتغال عليه كي يساعدنا على اعتماد هذه الموضوعية ،ثم معالجة الموضوع بدراسة وصفية ،فوصف الحقائق وتقريرها يسهل من عملية البحث خاصة وأن الخروج عن الإطار المنهجي يؤدي إلى التهاون في أخذ المعلومة أو تركها.

وقد قسمت البحث إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة حيث تناولت في المدخل مفهوم التصوف من الناحية اللغوية والناحية الاصطلاحية ،فقد اختلف المتصوفة في بدئ ظهوره وأصله وتعريفه ،وبعدها تطرقت إلى التصوف الإسلامي ومفهومه والذي يعد مبناه الأساسي هو الكتاب والسنة وأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تحدثت عن التصوف في بلاد المغرب حيث ازدهرت المدارس الصوفية في الدول المغاربية منها الجزائر ،وأخذت هذه المدارس خصوصيات مغاربية محضة بتأقلمها مع واقع المجتمع المحلي الثري بتنوع ثقافاته المكتسبة عبر العصور ،وبعدها وصلت إلى مفهوم التصوف عند الأمير الذي كان شديد الإيمان أن التصوف الإسلامي فيه ما يزيد عن معنى أي تصوف آخر لأن الإسلام في جوهره شريعة دنيوية وأخروية.

وتحدثت في الفصل الأول عن الأمير كشاعر ،بحيث قسمت هذا الفصل إلى مبحثين فتناولت في المبحث الأول أصل الأمير وأسرته ونسبه ثم مولده ونشأت بعدها ذكرت شيوخه وأئمتهم من أبرزهم النبي صلى الله عليه وسلم والشيخ الأكبر محي الدين بن العربي ثم تطرقت إلى كيف بنى الأمير دولته ونظمها من خلال الجانب السياسي والتنظيمي ثم الجانب التعليمي ،وبعدها ذكرت وفاته وأهم آثاره النثرية و الشعرية .

أما المبحث الثاني تحدثت فيه عن شعر الأمير عبد القادر وذكرت معالم شعره البنيوية حيث يعد معجمه الفني ثري بروافد تتجاوز العصر الذي عاش فيه وبعدها تطرقت للأغراض المختلفة التي نظم فيها الأمير كالغزل والمدح والفخر والحماسة والوصف.....الخ.

والفصل الثاني تناولت فيه التصوف في شعر الأمير عبد القادر ،والذي كان جزاءا من حياة أسرته التي ربته عليه حيث قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث : تحدثت في المبحث الأول عن أسباب التي دفعت الأمير لإتباع طريق التصوف من أبرزها النزعة الصوفية وانتماؤه إلى بيت النبوة وتربيته الدينية الصوفية وغيرها.

أما المبحث الثاني فكان عنوانه المراحل التاريخية لتصوف الأمير بحيث انقسمت إلى أربعة مراحل أساسية منها : مرحلة التلقن والتعلم والمطالعة ومرحلة الفتوة والمرابطة .

أما المبحث الثالث فتناولت فيه مقامات وأحوال ومجاهدات الأمير ثم ذكرت الرموز الصوفية التي وظفها في أشعاره كالخمر والحبيبة .

والفصل الثالث سعيت إلى محاولة شرح وتحليل بعض من نماذج شعر الأمير الصوفي حيث اخترت بعض من المقطوعات والقصائد مثل قصيدة "أنا المطلق " وقصيدة " أيا أنا " .

وتمثل الخاتمة خلاصة العمل وأهم النتائج المتوصل إليها بعد اختيار الموضوع ورسم الخطة المناسبة له يأتي مرحلة استعمال المصادر والمراجع ،فمن المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها القرآن الكريم ،ثم أمهات الكتب مثل كتاب" محيط المحيط" للمعلم بطرس البستاني ،و"لسان العرب" لابن منظور ،ولإثراء هذا البحث والوقوف على حقيقة أمره اعتمدت على بعض الكتب التي تناولت التصوف مثل : "الرسالة القشيرية" لعبد الكريم القشيري ، وكتاب " اللمع "لأبي نصر سراج الطوسي وكتابي "المواقف" و"ديوان شعر"للأمير عبد القادر . ورجعت إلى بعض المراجع الحديثة والرسائل الجامعية المثبتة في قائمة المصادر والمراجع.

والبحث مهمة صعبة ولهذا فإني واجهت بعض الصعوبات هي:

- شساعة الموضوع وشعبه إذ أنه ينفتح على عالمين رحبين عالم التصوف وعالم الشعر.
- كثرة المراجع وصعوبة التحكم فيها وضبطها وذلك بسبب قلة الخبرة والتجربة .

وما يمكن أن أقوله فعلا هو أنني لم أبلغ الغاية التي كنت أصبو إليها وذلك لأن الذات الصوفية الشاعرة عميقة عمق المجاهيل الدفينة في النفس ،والتي حاول الصوفي تصويرها في رأياه الحالمة وخياله الشاسع مستعينا في ذلك بحسه الصوفي ،ومهما يبلغ الإنسان من العلم قد يصعب عليه أن يصل إلى درجة أعلى بدون مساعدات وتوجيهات ،فاعترافا بالجميل لذوي الفضل علي في هذا المقام أتقدم بالشكر الجزيل والاحترام الجليل إلى أستاذي المشرف الأستاذ"أحمد بشري" والذي كان خير مرشد وأحسن معين لي في مشواري هذا ،كي يأخذ هذا العمل طريقه السوي ،وأشكره على صبره معي ونصائحه القيمة التي أعطت لهذا العمل منهجا سليما.

فأسأل الله جلا وعلا أن يجزيه خير جزاء و إلى كل من أسهم في مساعدتي على إنجاز هذا البحث ولو بكلمة طيبة.

مدخل

ماهية التصوف

تمهيد

إن الإنسان في صراع دائم منذ وطئت أقدامه هذه الأرض،ولما عجز عن الوصول إلى إيجاد حل لمشكلاته وصراعه الداخلي لجأ إلى الله عز وجل وتفرد به وأصبح يناجيه في ذاته الإلهية فكانت هذه المناجاة إشراقا وتقربا إليه طمعا في حبه ، متوجها إلى خالقه ، شاكيا إليه الأمة وحرمانه واشتياقه إلى قربه والنظر إلى وجهه الكريم ، ومن هذا انبثق ما يسمى بالتصوف أو المتصوف وسمي بهذا الاسم لأنه ينفرد إلى الله عز وجل لذاتيته وليس لدينه أي ليس طمعا في جنته وإنما طمعا في رضاه.

فأول سؤال يواجهنا، ما هو التصوف ؟

1/ مفهوم التصوف:

أ/ لغة :

جاءت كلمة التصوف من صاف الكبش يصوف صوفا صار ذا صوف ، ويقال : صاف يصيف صيفا صيفوفة من الياء أيضا ، وصاف عني وجهه : " مال وتصوف الرجل تصوفا صار صوفيا وتخلق بأخلاق الصوفية " و"الصوفي عند أهل التصوف من هو بنفسه باق بالله تعالى مستخلص من الطبائع متصل بالحقيقة الحقائق نسبة إلى الصوف أو سوفوس باليونانية بمعنى الحكمة و"التصوف التخلق بالأخلاق الإلهية وهو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا و"التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل وقيل هو تصفية القلب عن موافقه البرية...والمتصوف : "هو الذي يجاهد لطلب درجة الصوفية "

"المستصوف هو الذي يشبه نفسه بالصوفي "[1] و" التصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو الروح "،و" وعلم التصوف مجموعة من المبادئ التي يعتقدها المتصوفة

[1]- بطرس البستاني –محيط المحيط – مكتبة لبنان :لبنان –د.ط-1987:ص525

والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم ،و" الصوفي من يتبع طريقة التصوف والعارف بالتصوف ".[1]

وفي الرسالة القشرية في باب التصوف :" قال الأستاذ :الصفاء المحمود بكل لسان ، ضده الكدورة وهي مذمومة ....خرج الرسول صلى الله عليه وسلم متغير اللون ،فقال ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر فالموت اليوم تحفة لكل مسلم ".[2]

وقال أيضا مشيرا إلى معنى التسمية إنها "غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي وللجماعة الصوفية لأن الحق من صافاهم وأخلص لهم النعم بما أطلعهم عليه ومن يتوصل إلى ذالك يقال له :" متصوف ". وقيل: " سمو صوفية لأنهم في صف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه "[3]

ب/ اصطلاحا:

تعددت مفاهيم وتعاريف التصوف، فقد حاول الكثيرون وضع تعريف شامل جامع لضبط ماهيته ، وقد وصلوا إلى حقيقة واحدة عبروا عنها بصيغ مختلفة و لكنها متقاربة في مضمونها ،وفي الواقع أن الصوفيون لم يقصدوا تعريف التصرف تعريفا علميا وإنما أرادوا التعبير عن أحوالهم الخاصة ومواجدهم في لحظة معينة ، فكل واحد منهم يعبر عما وجد ، وينطق بحسب مقامه، ومن أهم هذه التعريفات نذكر قول القصاب :" هو أخلاق الكريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم مع قوم كرام "[4]. وقال الجنيد :"هو أن يمتلك الحق عنك ويحييك به ".وقول رويم :"هو البقاء مع الله على ما يريد لا تملك شيئا ولا يملك شيئا". وقول سمنون: "هو أن تكون مع الله بلا علاقة ".

---

[1]- إبراهيم مصطفى،أحمد حسن الزيات ،حامد عبد القادر ،محمد علي النجار –المعجم الوسيط –ج1-المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر –إستانبول –تركيا- ط:2،ص529

[2]- القشيري :الرسالة القشيرية –مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده –د،ط -1981،ص216

[3]- المنحى الصوفي في الشعر العربي الحديث :رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث :حفيظة سليماني إشراف أ،د محمد عباس ،ص05

[4]- القشيري :الرسالة القشيرية –مرجع سابق ص150

كما نقل الطوسي أبو نصر سراج في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي عن الصوفي أنه قال : كان الأصل صفوي ، فاستثقل ذالك فقيل : "صوفي " ويمثل ذالك نقل عن أبي الحسن الكناد : هو مأخوذ من الصفاء [1].

وقال بشر ابن الحارث:" الصوفي من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته " وقال أبو حفص :" التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ولكل حالة أدب ولكل مقام أدب ...فمن لزم أدب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرج القبول ...وحسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :"لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ".[2]

وقد ورد في معجم محيط المحيط أنه : تصفية القلب عن موافقه البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدعاوي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة وقيل هو ترك الاختيار ، وقيل بدل المجهود والأنس بالمعبود ،وقيل مراقبة الأحوال ولزوم الأدب ...[3]

كما اختلف الناس في بدئ ظهور هذه الكلمة واستعمالها كاختلافهم في أصله و تعريفه، فذكر ابن تيمية و سبقه ابن الجوزي و ابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى،و إنما اشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة و الشيوخ كالإمام: أحمد بن حنبل،أبي سليمان الداراني و غيرهما،وقد روي عن سفيان الثوري

[1]- المرجع نفسه ص 150

[2]- المنحى الصوفي في الشعر العربي الحديث – مرجع سابق –ص08

[3]- بطرس البستاني –محيط المحيط –مرجع سابق ص 525

أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري.وقال السهرودي:"وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقيل كان في زمن التابعين-ثم نقل عن الحسن البصري وما نقلناه عن الطوسي أيضا_ثم قال : وقيل : لم يعرف هذا الاسم إلا المائتين من الهجرة العربية ".

وقال القشيري :"اشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة ".

وصرح عبد الرحمان الجامي :" أن أبا هاشم الكوفي أول من لقب بالصوفي و لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ".[1]

أما المستشرقون الذين كتبوا عن التصوف ، ويعدون من موالي الصوفية و أنصارهم،فمنهم نيكاسون فإنه يرى مثل ما يراه الجامي أن لفظة التصوف أطلقت أول مرة على أبا هاشم الكوفي المتوفي سنة 150هـ، ولكن المستشرق الفرنسي المشهور ماسينيوس يرى غير ذلك فيقول :ورد لفظ الصوفي لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي إذ نعت به جابر بن حيان ، وأبو هاشم الكوفي.

أما صيغة الجمع "الصوفية" التي ظهرت عام 189 هـ/ 814م في ظل فتنة قامت بالإسكندرية فكانت تدل قرابة ذالك العهد على مذهب من مذاهب التصوف الإسلامي يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة ، وكان عبدك الصوفي آخر أئمته، إذن فكلمة صوفي كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة ".[2]

وهكذا يمكن القول أن أمر التصوف كله مختلف فيه ، فكلما اختلف في أصله واشتقاقه وحده وتعريفه ، وبدئه وظهوره ، وفي أول من سمي ولقب به كذالك اختلف في منبعه ومأخده ومصدره ومرجعه ، فهناك من قال أنه إسلامي بحت وهناك من قال أنه لا علاقة له بالإسلام إطلاقا.وهناك من قال أنه وليد أفكار مختلطة من الإسلام وديانات أخرى كاليهودية والمسيحية وغيرها .[3]

---

[1] - إحسان إلاهي ظهير :التصوف المنشأ و المصادر –دار الإمام المجدد-القاهرة ،مصر –ط:1 – ص 47،48

[2] - المرجع نفسه :ص 49،50

[3] - المرجع نفسه ص 57

2/ التصوف الإسلامي :

التصوف الإسلامي الحقيقي مبناه على الكتاب والسنة وعلى أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن تعرجت مؤخرا تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألوانا عدة ، واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسب المذاهب المورثة للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس ومسيحيين ، ولاسيما في عصر الترجمة الذي شجع عليه المأمون ، ومن بعده الخلفاء العباسين فترجم المسلمون كتبا كثيرة من التصوف الهندي والفارسي واليوناني ، وطمعت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بها دخل عليها من النزاعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة وبعض الذاهب الهندية والفارسية في التصوف كنظرية الحلول والإتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذالك." ولكل دين تصوفه وطبعه" [1]

ومع ذالك ظل التصوف الإسلامي الصميم والذي مصدره الكتاب والسنة قائما على حالة في صدور رجاله وفي الكتب الإسلامية كتواليف الحسن البصري والقشيري وأبي طالب المكي والسراج والغزالي وشد عن ذالك أمثال الحلاج الذي قال بالحلول والقائل :" أنا الحق وما في الجبة سوى الله ".[2]

والشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي ، الذي يمكننا اعتباره الوريث الشرعي لـ: "أبو مدين" وذالك لأنه كان على علاقة وثيقة مع كثير من أتباع الرجل وكان دائما يتكلم عنه باحترام وإجلال بقوله : " شيخي" كما أنه كان غزير الإنتاج بل إنه أكثر غزارة من جميع المتصوفة على مر العصور، ولقد كشف " ابن عربي " في كتاباته أنه كان مجبرا على الكتابة ، وذالك لبحثه عن الإسلام والخلاص من عذاب الفكر المضني الذي كان يلح عليه ، ولوعيه بامتلاكه القدرة الخاصة التي تلقها،كان يخشى أن تعزى إليه فيما بعد كتابات ليست من تأليفه ، وكانت خشيته في مكانها وقبل موته قدم قائمة بمائتين وسبعين كتابا من أهمها : "كتاب فصوص الحكم " و" الفتوحات المكية "[3] وكل ما وصل إلينا من آثار الشيخ الأكبر

---

[1]- المرجع نفسه :ص 126

[2]- المرجع نفسه :ص 126

[3]- مارتن لانغ –ماصوفية؟ ترجمة فاروق الحميد –دار الفر قد – سورية – دمشق – طبعة جديدة –مصححة ومنقحة – ص 108

يعتبر بحق كنزا ثريا لا يضاهى وشعرا مازال يلعب دوره في الحياة السالكين إلى هذا اليوم.

يقول محي الدين بن عربي :" حضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله " .وبرأيه من فكرة الحلول قوله ، بالسكر وغلبة الحال وأكثر الأعاجم خلطوا بين الفلسفة الفارسية القديمة أو الهندية وما اقتبسوه عن اليونانية والأفلاطونية الحديثة وبين تصوفهم الخاص.

وذكر القشيري صاحب(الرسالة) وهو أحد الأئمة المعتمدين في علم التصوف ، حيث فسر أن الصوفي مركب من أربع حروف : فالصاد صبره وصدقه وصفاءه ، والواو جده وده ووفاءه ، والفاء فقره وفقده ، والياء ياء النسبة بها أضيف إلى حضرة مولاه.

ومن الواضح أن التصوف الإسلامي لايمكن حصره في تعريف جامع شامل وإن المتصوفين لم يعرفوا التصوف إلا من خلال أحوالهم ومجاهداتهم التي عايشوها واختبروها وقد بلغت هذه التعاريف من الكثرة العددية حتى قال أحد شيوخ التصوف : "إن قد حد ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ، مرجع كلها إلى التصوف صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه"[1].

ولاحظ ابن خلدون الكثرة العددية الساحقة في تعاريف الصوفية وردها إلى السببين هما:

اختلاف أحوال المتصوفين ، وتطور الحياة الإسلامية . فمن المتصوفين من عبر بأحوال البداية كقول الحريري :" التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق ديني ".وقول القصاب:" هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام. ومنهم من عبر بأحوال النهاية ، فقد سئل الجنيد عن التصوف فقال : " أن تكون مع الله بلا علاقة "[2].وقال أيضا :"التصوف ذكر من اجتماع ، ووجد من استماع ، وعمل مع إتباع " .وقال معروف الكرخي:"التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق ".

[1] – فؤاد صالح السيد – الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا –مرجع سابق – ص114

[2]– السراج الطوسي : اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي صححه كامل مصطفى الهنداوي – دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان –ط.1– ص129

وقال الكناني:" التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء ".وقال الشبلي: " التصوف الجلوس مع الله بلا هم".[1]

وخلاصة كل هذا ، إن أفضل طريق للحكم على طائفة معينة وفئة خاصة من الناس هو الحكم المبني على أرائهم وأفكارهم التي نقلوها في كتبهم المعتمدة والرسائل الموثوق بها لديهم بذكر النصوص والعبارات التي يبنى عليها الحكم ، ويؤسس عليها الرأي ولا يعتمد على أقوال الآخرين ونقول الناقلين ، اللهم إلا للاستشهاد على صحة استنباط الحكم واستنتاج النتيجة .

ورغم أنها طريقة وعرة وشائكة وصعبة وقل من يسلكها ؛ إلا أنها هي الطريقة الصحيحة المستقيمة التي يقتضيها العدل والإنصاف ، ولهذا عندما نتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر ، وأقاويلهم المنقولة منهم ، والمأثورة في كتب الصوفية القديمة والحديثة نفسها ، نرى

فرقا شاسعا بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة ، وكذالك لانجد جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد صلوات الله عليه وأصحابه الكرام البررة خيار خلق الله وصفوة الكون ، بل بعكس ذالك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهبنة المسيحية ،والرهبنة الهندوكية ، وتنسك اليهودية ، وزهد البوذية والفكر الشعوبي الإيراني المجوسي ...وغيرها .[2]

3/التصوف في بلاد المغرب :

رغم التاريخ السائد أن أصول التصوف الإسلامية تعود إلى المشرق العربي إلا أن الحقيقة أثبت بأن معظم التيارات الصوفية في المغرب العربي عموما والجزائر على وجه الخصوص تمتد جذورها إلى مسلمي الأندلس عن طريق المغرب الأقصى، وقد ازدهرت المدارس الصوفية مع بداية انحطاط الحضارة الإسلامية وسقوط الخلافة وتشرذم العالم الإسلامي وبروز التيارات اللائكية الاندماجية في معظم الدول الإسلامية الرازحة تحت نير الاستعمار ، كالجزائر والمغرب وتونس وأخذت خصوصيات مغاربية محضة بتأقلمها مع واقع المجتمع المحلي الثري بتنوع ثقافاته المكتسبة عبر العصور والحضارات المتعاقبة

[1]- القشيري :الرسالة القشيرية – مرجع سابق – ص 240

[2]- إحسان الاهي ظهير :كتاب التصوف المنشأو المصادر – مرجع سابق :ص 58

معلنة بذالك استقلالها عن كل نفوذ مشرقي أو تبعية اقتداءا بالفكر السياسي السائد آنذاك مما ساهم في استقرارها وترسيخ فكرها.[1]

ويبدو أن كل الطرق الصوفية في المغرب عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص تعود جذورها إلى أسرار الصوفية الأربعة الرئيسية :(القادرية والشاذلية والخلوتية والحضرية)، دون سواها ومع ظهور الإسلام الإصلاحي في العالم الإسلامي على يد كل من جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده وعبد الحميد ابن باديس ، أصبح للطريقين دور مزدوج يتمثل في مقاومة كل مساس بالإسلام التقليدي من جهة والمحافظة على قيم كل مدرسة على حدا من جهة أخرى ، علما أن الزوايا في الجزائر تنتمي كلها إلى المدارس الصوفية المشهورة : القادرية نسبة لشيخ عبد القادر الجيلاني والشاذلية نسبة لشيخ أبو الحسن الشاذلي والخلوتية نسبة إلى الشيخ محمد الفارسي الخلوتي باستثناء السنوسية التي تنتمي إلى المدرسة الخضرية [2] التي أنشئها الشيخ عبد العزيز دباغ خلال القرن السابع عشر ميلادي وطورها الشيخ محمد سيدي علي بن السنوسي الخطابي ،وقد بين الدكتور عمار طالبي في المدخل إلى الحياة العقلية والنهضة الحديثة في الجزائر من كتابه الذي تناول فيه الفكر الباديسي ، ازدهار الزوايا خلال القرن التاسع عشر بقوله :" لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ،سيطرة مذهلة فبلغ عدد الزوايا 349 زاوية وعدد المريدين أو الإخوان 295,000 مريد ، والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم طريقيين.

أما المفكر الجزائري الأستاذ "مالك بن نبي" الذي كتب مقدمة كتاب آثار ابن باديس يقول عن باديس نفسه : " أما ابن باديس فقد جاء في فترة جددت فيها النزعة الصوفية " المرابطة" أو "التصوفية "دورة المرابطين" ويضيف :" لقد كان ابن باديس مناظرا مفحما ومربيا بناءا ومؤمنا متحمسا وصوفيا والها... " هذه الشهادة من مفكر عارف بأمور الجزائر تدحض حجج المتقولين بأن ابن باديس كان يحارب التصوف ، بل كان في حقيقة الأمر يحارب البدع الهدامة والخرافات

[1]- بوداوية بلحيا –التصوف في بلاد المغرب العربي :دار القدس العربي –الطبعة الأولى :ص 19 - 20

[2]-المرجع نفسه –ص 20

المشينة التي نالت من قدسية الدين الإسلامي الحنيف ، ومع شذوذ بعض الزوايا التي عرفت بدورها السلبي ، إلا أن الأغلبية الساحقة قاومت الاستعمار الفرنسي منذ بداية دخوله للأوطان مقاومة باسلة ،كما كان لها دور فعال في تنشيط المجتمع وتوجيهه الوجهة اللائقة بالرغم من تكالب النزعات المعرضة الهادفة إلى استمالتها والاستفادة من نفوذها وفي نفس الوقت التشكيك في استقامتها بل ورميها بتحريف الدين والتعاون مع الاستعمار للحفاظ على مركزها ، الأمر الذي أدى على طول المدى إلى تشويه سمعتها وبالتالي تغيير نظرة العامة إليها.[1]

ومن أبرز هذه الزوايا والتي ينحدر منها الأمير عبد القادر الجزائري هي:

القادرية:

هي من أقدم الطرق الدينية على الإطلاق وبدون منازع نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني والتي أنشئت في بغداد في القرن الثاني عشر للميلاد ،وتتمثل فلسفة القادرية في فناء الذات واتحاد الروح بالخالق في تصوف إنشائي إلى درجة الهستيريا بواسطة طقوس تدرس مبادئ الإحسان في أسمى معانيه وذلك بدون تمييز جنسي[2] أو عرقي أو مذهبي في محبة ملتهبة وتقوى وهاجة وتواضع دائم ، وحلاوة متناهية والطريقة القادرية تفرعت إلى مجموعة من الزوايا من أبرزها زاوية الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر وزاوية بلحلول و الزاوية القادرية التحتانية والزاوية القادرية الفوقانية وزاوية شلاظة...

أما فروعها فهي أربعة:

1- **العيساوية أو العيساوة:**

طريقة صوفية تمتد جذورها إلى الشيخ سيدي محمد بن عيسى السفياني المختاري والتي انقسمت إلى ثلاثة فروع.

2-**العمارية :**

[1] - المرجع نفسه ص 21-22

[2] - المرجع نفسه :ص 23 (بتصرف)

تعود أصولها إلى الولي الصالح سيدي عمار بوسنة ، وقد انتشرت هذه الزاوية وذاع صيتها في بلاد المغرب العربي.

3- الكنوتية:

أنشئت خلال القرن السادس عشر ميلادي في قبيلة كنوتة ولاية أدرار وقد أشرف على إنشائها الشيخ عمر بن سيدي أحمد البكاي وهو سليل الولي الصالح فاتح شمال إفريقيا سيدي عقبة بن نافع الفهري.

4-الفضيلة أو العينية :

أنشئها الشيخ سيدي محمد الفاضل الشنقيطي من قبيلة (أهل طلاب مختار قلاقمة) الذي أصبح الوريث الروحي للشيخ البكاي.[1]

وبعد ما تحدثت عن زوايا القادرية وفروعها لابد أن أشير إلى أن الأمير عبد القادر ينتمي إلى هذه الطريقة ،فهو يعد أحد أقطابها ووالده كان يرأس واحدة من أكبر زواياها ،ففي هذه الزاوية نشأ الأمير عبد القادر المجاهد والمتصوف وفيها تربى وتعلم وأتقن القراءة والكتابة ،ولما تجاوز الخامسة حفظ كتاب الله وجملة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، بحيث نبغ مبكرا في مسجد الزاوية وتقلد مسؤولية التدريس وهو شاب ، حيث جلس للتفسير في مسجد الزاوية كما عرف عنه أنه كان يجيد تخريج الآيات ويحسن تأويل المتشابه من القرآن.

أما تصوف الأمير فقد بدأ عندما تلقَّن وتعلَّم وطالع مبادئ التصوف في المرحلة الأولى من مراحل حياته ،ولكنه لم يعاني التجربة الروحية الشخصية ولم يصل إلى الأفق الروحاني المشرق الذي يريد أن يحققه لنفسه عن طريق الذوق إلا في مراحل متقدمة من حياته وأول ما ينبغي علينا معرفته هو مفهوم التصوف في نظر الأمير .[2]

مفهوم التصوف عند الأمير:

---

[1]- المرجع نفسه ص 26،37،38،39 (بتصرف)

[2]- مؤسسة الأمير عبد القادر :الحياة الروحية لأمير عبد القادر :موفم للنشر :ص 61

يعتبر الأمير أن التصوف:"جهاد النفس في سبيل الله ، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية ، والاطمئنان و الإذعان لإحكام الربوبية لا لشيء آخر من غير سبيل الله ". [1]ويوجه الأمير تحذيره إلى الصوفي الذي : " يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك ، أو لصرف وجوه العامة إليه ، أو حصول غني ، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية".

ويحذر الأمير مرة ثانية من الذين تكون عباداتهم :"مشوبة بأغراض نفسية وحظوظ شهوانية ". والصوفيون في نظر الأمير هم هؤلاء اللذين عليهم :" أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم ،حاضرين مع الله تعالى".[2]

كما أطلق الأمير على الصوفيين ألقابا عديدة فهم تارة " أهل الله" وطورا "العارفون" ومرة "أهل الكشف والعرض" ، ويحاول الأمير من خلال تعريفة لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان بعض الناس في عصره عن التصوف والمتصوفين فأهل الله الذين يعنيهم الأمير بحديثه "ليسوا" هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم ، ويدخلون التنورَ ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام ... لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبدة ومنه ماهو سيمياء ، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم".

ويخلص الأمير برأيه إلى اعتبار "الصوفية هم سادات طوائف المسلمين" وهكذا يمكن القول أن مفهوم التصوف عند الأمير هو: جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله والحضور الدائم مع الله .[3]

وأخيرا يمكن القول أن التصوف عند الأمير هو ذلك الجهاز التنظيري التجريدي ، الفلسفي والسلوكي- العملي الذي كون من دون شك الخلفية المعرفية التي أطرت سلوك هذا الرجل العظيم ، والذي تمكن من الربط البنيوي والهيكلي بين مضامين التصوف وحركة الجهاد ....فكون التصوف

---

[1]- الأمير عبد القادر – المواقف- :71 ص141

[2]- المصدر نفسه :ص 46،35،141

[3]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا ،مرجع سابق :ص 116

الجهاز المفاهيمي والقيمي والسلوكي التطبيقي عند الأمير عبد القادر الجزائري ، وكان إسلامه الصوفي الجهادي واحدا من المرتكزات والعناصر الأساسية لمنظومة ونسق القيم عند الأمير ، فإذا كان التصوف عند البعض رؤية للعالم يؤسسها موقف"الرفض له ونهج في السلوك يجسد عملية الرفض هذه" فإن الأمير عبد القادر قد رفض الاستعمار لأنه حالة طارئة على صفاء الموطن البادية موضع التعبد والصيام والأنس والصلة ،ويسجد هذا الرفض بسلوك الجهاد الذي قام على المبايعة و المشاركة الشعبية ،وبهذا يكون الأمير قذ نقل التصوف من ذلك الموقف الفرداني إلى موقف جماعي ومن موقف طبقي إلى موقف شعبي ومن الصفوة إلى الجماهير ،ومن الذوق والكشف إلى الجهاد والاستشهاد الذي يحقق ربما في نظر المتصوفة من نموذج الأمير كمجددين في التصوف رمزا للإتحاد مع العالم العلوي والذات العلوية...إلخ.[1]

وكان الأمير مؤمنا أشد الإيمان أن في التصوف الإسلامي ما يزيد فيه على معنى أي تصوف آخر لأن الإسلام في جوهره شريعة دنيوية وأخروية ، فهو يأمر بالعمل والجهاد والتمتع بالحياة دون إسراف ،ولا عدوان مصدقا لقوله تعالى:"وابتغ فيما آتاك الله الدَّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدَّنيا وأحسن كما أحسن الله إليك...." سورة القصص 28/الآية 77

وبعدما تحدثت في هذا المدخل عن مفهوم التصوف بصفة عامة لغة واصطلاحا وتحدثت أيضا عن مفهوم التصوف الإسلامي وأن مبناه على الكتاب والسنة ، ثم انتقلت إلى التصوف في بلاد المغرب عامة ثم في الجزائر بصفة خاصة فذكرت أشهر الزوايا ومن بينها القادرية والتي ينتمي إليها الأمير عبد القادر الجزائري والذي سأتطرق إلى التحدث عن مولده ونشأته وشعره في الفصل الأول.

[1]- مؤسسة الأمير عبد القادر : الحياة الروحية للأمير عبد القادر : مرجع سابق :ص 161،162

الفصل الأول

التعريف بصاحب المدونة

المبحث الأول:الأمير عبد القادر شاعرا ومجاهدا

1. أصل الأمير وأسرته :

تنتمي أسرة الأمير عبد القادر إلى أصل مراكشي ، وكان لأسلافها الدراسة ملك عظيم في بلاد المغرب الأقصى فطالما خفقت أعلامها وبنودها فوق جبال الأطلس الشامخة ، وأول من نزح من أسلافهم عن مراكش عبد القوي الأول ، الذي نزل بقلعة بني حماد قرب(سطيف) من أعلام قسنطينة وذلك عند اشتداد الفتن في المغرب الأقصى وفي عهد السيد مصطفى بن محمد بن مختار الجد الأكبر لعبد القادر، نصبت الأسرة أعلامها في إيالة وهران وبسطت نفوذها على القبائل النازلة في تلك النواحي ، ولاسيما في عهد السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر ، وقد لعبت الأسرة دورا سياسيا بارزا في عهد الأتراك فدافعت عن استقلال القبائل النازلة في المناطق الداخلية ضد سيطرة الحكومة الرسمية ، وكان والد الأمير عبد القادر من حماة الشريعة ومن كبار أوليائها المختارين ، وكان يلقب (بالشريف) لانتسابه إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو شيخ الطريقة القادرية والفقيه المرابط، الذي كانت قبيلة بني هاشم تنظر إليه نظرتها إلى ولي صالح من أولياء الله.[1]

وقد تزوج محي الدين من أربعة نسوة رزق منهن ستة أولاد وقد رزق نجله الثاني الأمير عبد القادر ، من زوجته الثالثة وهي السيدة الزهراء ابنة السيد محمد بن دوحة الحسينية.[2]

[1] – فؤاد صالح السيد : الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا ،صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية (2007) ص27،28

[2] – المرجع نفسه :ص 29

2. نسبه:

هو عبد القادر محي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن خدة بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد بن مسعود بن طاووس ابن يعقوب عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة زهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

3. مولده ونشأته:

ولد عبد القادر في الثالث والعشرين من رجب عام ألف ومائتين واثنين وعشرين هجرية ، الموافق لألف وثمانية وسبعة ميلادية في قرية "القيطنة" سهل "غريس" قرب مدينة معسكر الواقعة في الجنوب الشرقي من وهران ، وقد نشأ نشأة دينية في بيت ينتمي إلى الطريقة القادرية ،حيث كان والده محي الدين عالما متصوفا فأولى ابنه عناية خاصة لدراسة علوم اللغة والفقه والتفسير واستطاع أن يحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وكان لدى عبد القادر ميل نحو تعلم واكتساب أنواع المعرفة منذ نعومة أظافره ،وما إن بلغ الرابعة عشر من عمره حتى أرسله والده إلى مدينة وهران لاستكمال تحصيله العلمي. فمكث فيها عاما ثم صحبا أباه في رحلة إلى الديار الحجازية ، لتأدية فريضة الحج فسارا عن طريق تونس ، فطرابلس فالإسكندرية فالقاهرة ثم إلى مكة المكرمة فالتقيا بكثير من العلماء والأعيان وتعرفا على أحوال المسلمين في تلك البلاد.

وبعد فراغهما من مناسك الحج ، اتجها إلى دمشق ومنها إلى بغداد فأخذ عبد القادر في الأولى الطريقة النقشبندية عن العالم "خالد المجددي" ، والطريقة القادرية عن محمود الكيلاني في بغداد.[2]

---

[1] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري تحقيق وشرح وتعليق د- زكريا صيام ،ديوان المطبوعات الجامعية ،ص13

[2] – ديوان الأمير عبد القادر :ت–ش :د زكريا صيام ، مرجع سابق ،ص 13

وفي سنة ألف ومائتين وستة وأربعين ، رفع والده لواء الجهاد بين المسلمين فاشترك ابنه في تلك المعارك الطاحنة وأظهر من الشجاعة والذكاء ما لفت الأنظار إليه ،وعقد الآمال عليه ومن أشهر المعارك التي خاض غمارها ببسالة حتى شهد له فيها العدو فضلا عن الصديق : معركة "خنق النطاح" التي دارت رحاها بين جيش المسلمين (بقلة عدده) وبين جيش الفرنسيين المدجج بأحدث الأسلحة ولما اشتدت الحاجة إلى رجل يقود الجهاد ،ويخلص المسلمين من رقبة الغاصب الفرنسي ويطفي نيران الفتنة والفساد فاجتمع الأشراف والعلماء والأعيان ، وقدموا على سيد محي الدين ، وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة ، فأمعن النظر في الأمر واعتذر عن القبول لأسباب منها :كبار السن، والعجز عن النهوض بأعباء الإمارة ، وقدم لهم ابنه عبد القادر كما أنس فيه من مقومات القيادة والصلاح وعلو الهمة.[1]

وبعد زمن أتاه علماء "غريس" : وقالو له : إن أولياء الله تعالى ، قد اتفقوا على نصب ولدك "عبد القادر" لنصر دين الله ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لأنه كان يعلم أن ولده شاب فطين صالح لفصل الخصوم ومداومة الركوب مع كونه نشأ في عبادة ربه ولهذا قال :"وأعتقد أني فديت به نفسي لأنه عضو مني وما أكرهه لنفسي أكرهه له".[2]

فاجتمع أصل الحل والعقد وبايعوه رغما عنه ، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، الموافق ل21 نوفمبر 1832 م دخل عبد القادر مدينة معسكر وقد غصت كل الشوارع والطرق المؤدية إلى المدينة وكان الرجال والنساء والأطفال يتبادلون التهاني في مظاهرة ترحيب سارة بسلطانهم المستقبلي ،وبعد إدخاله إلى الرحبة حيث كان المجلس منعقدا أعلم عبد القادر بكل ما دار وفي هدوء وانضباط نفس،وبدون زهو قال: "إن من واجبي طاعة أوامر والدي" وهنا انفجر تصفيق حاد على هذا العبد البسيط الذي يعبر عن البنوة الطائعة والإخلاص الوطني .[3]

---

[1]- المرجع نفسه: ص14 -15

[2] – الحاج مصطفى بن التهامي –سيرة الأميرة عبد القادر وجهاده :ت،ت د- يحي بوعزيز :دار البصائر للنشر والتوزيع (طبعة خاصة 2009) ص130.

[1]- شارل هنري تشرشل ،حياة الأمير عبد القادر ،ترجمة ،أبو القاسم سعد الله :عالم المعرفة – الجزائر – (طبعة خاصة 2011) ص82.

4. شيوخ الأمير عبد القادر وأئمته :

هناك مجموعة من الأئمة والشيوخ الذين تأثرهم عبد القادر وسار على خطاهم واتبع طريقتهم وكانوا قدوة له في حياته من أبرزهم:

النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

هو أول شيوخ الأمير الذين هاجر إليهم إذ أن الأمير يعتبر:" أن الهجرة إلى الرسول هي المقصد الثاني للدلالة ،وتعريف سلوك طريق المطلوب وهي هجرة جسمانية وكما كانت الهجرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة قبل فتح مكة فهي اليوم باقية لورثة أحواله وأسراره ، الدالين على الله تعالى الداعين إلى معرفته ".[1]

حيث يقول الأمير في إحدى قصائده مبديا فيها موقفه من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وتوسلاته إليه وافتقاره إلى شفاعته وإبتغاء رضا النبي محمد صلوات الله عليه ،لأن الأمير يعتبر أن الرضا النبوي فخر له ،وشرف كبير فيقول:

ياسيدي ! يارسول الله ياسندي ! ويا رجائي! ويا حصني !ويا مددي!

ويا ذخيرة فقري! يا عياذي يا غوثي! ويا عدتي للخطب والنكد !

يا كهفذلي ويا حامي الذما رويا شفيعنا في غد ! أرجوك ياسندي

أبغي رضاك ولاشيء أقدمه سوى افتقاري وذلي واصفرار يدي

إن أنت راض ، فيا فخري ويا شرفي ماذا عليَّ إن واليت من أحد ؟![2]

[2]- الأمير عبد القادر : المواقف:ج 01:دار اليقظة العربية:(الطبعة ثانية منقحة) م 185، ص407

[2] - ديوان الأمير عبد القادر :تحقيق – تحقيق – زكريا صيام :ص 42

ويعترف الأمير صراحة بأنه من البحر المحيط خاتم النبوة يرتشف ومن الألقاب التي أسبغها الأمير على النبي صلى الله عليه وسلم:"السيد الكامل معلم الأدب " وإمام المحبوبين" و"إمام المعلمين والمؤدبين"

الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي:

هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الحاتمي الطائي الأندلسي 560 هـ- 638هـ 1165م - 1240م أما لقبه الكامل المشهور فهو الشيخ الأكبر هو حكيم وصوفي ومتكلم وفقيه ومفسر وأديب وشاعر من أئمة المتكلمين فيكل علم ولد في مرسية جنوبي شرق الأندلس قال الأمير :" الهجرة إلى الرسول أو وارثه واجبة على الأعيان" [1]وبهذه الجملة عرفنا الأمير إلى شيخه الصوفي الثاني بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو الوارث المحمدي ومن هنا اعتبر الأمير أن شيخه محي الدين خزانته التي منها يستفيد في مايكتب "أما من روحانيته وأما مما كتبه في الكتب"[2]

بحيث أن هناك أوجه تشابه كثيرة بين الأمير والشيخ الأكبر محي الدين بن عربي من بينها : مجيئهما إلى ديار المشرق ، واستقررهما النهائي فيها ، ووفاتهما ودفنهما عند سفح الجبل قاسيون في الحي المعروف اليوم باسم "الصالحية"إضافة إلى نفس الفترة الزمنية التي استغرقها كل منهما في تأليف مصنفه الشهير كتاب "الفتوحات المكية" للشيخ الأكبر وكتاب "المواقف" للأمير وقد كان ابن عربي شديد المدح لنفسه ويطريها إطراءا يصل إلى حد المبالغة ، وتبدو نفسية الأمير في الاعتداد والفخر والتشامخ قريبة الشبه من نفسية أستاذ وشيخه.[3]

الشيخ محمد الفاسي:

[1] – الأمير عبد القادر :الموقف :ج1،م :185،ص 407

[2] – فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا :ص 170

[3] – المرجع نفسه: ص 171

تأتي درجة هذا الشيخ في المرتبة الثالثة من مراتب شيوخ الأمير وتبدأ علاقة الأمير بشيخه محمد الفاسي في أثناء خلوته الصوفية بمكة التي قضي فيها سنة ونصف ،نظم فيها قصيدته المشهورة التي وصف فيها بدايته ونهايته ،وأثنى على الله بما أولاه على يد شيخه وكما بالغ الأمير في الحديث عن شيخه ابن العربي وتذلل إليه وكذالك بالغ في الحديث عن شيخه ابن عربي وتذل إليه تذللا ،حتى قبل أقدامه وبساطه ،عند مثوله بين يديه بعد أن طال انتظار شيخه له لسنوات طويلة خلت فقد قال:

أتاني مربي العارفين بنفسه ولا عجب فالشأن أضحى له أمر

وقال :فإني منذ اعداد حجة لمنتظر لقياك يا أيـها البدر

فقبلت من أقدامه وبساطه وقال:لك البشرى بذا قضي الأمر[1]

والشيخ محمد الفاسي هو ملاذ الأمير وعمدته وعدته وكهفه الأمين الذي يلتجئ إليه وهو محي نفس الأمير بعد أن كانت روح هذا الأخير كالرمة ، فلقد تجدد عمر الأمير واكتسب العمر الجديد ،والحياة الجديدة ،فشيخه محي النفوس ويعتقد الأمير أن شيخه يسوس الكون ويتداركه ويحميه ،وأعطي مطلق الحكم والتصريف والنهي والأمر وفي ذلك مبالغات خيالية عجيبة ،على أنه من جهة أخرى يعتقد أن كل هذه القوى الهائلة التي أعطيت لشيخه مستمدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم

حريص على هدى الخلائق جاهد رحيم بهم بر خير له القدر

كساه رسول الله ثوب خلافة له الحكم والتصريف والنهي والأمر

وقيل له:إن شئت قل:قدمي علا على كل ذي فضل أحاط به العصر[2]

الشيخ خالد النقشبندي السهرودي:

لم يرد لهذا الشيخ الصوفي ذكر في مؤلفات الأمير الشعرية والنثرية .

د – الشيخ محمود القادري الكيلاني

[1] – ديوان شاعر الأمير عبد القادر :ج ،ت ،ش:د – العربي دحو ،حقوق النشر محفوظة لمنشورات ثالة –طبعة ثالثة :ص 107

[2] – المرجع نفسة :ص 109

لم يتطرق الأمير إلى ذكر شيخه الصوفي هذا ،لا في مؤلفاته الشعرية ولا النثرية [1]

5. بناء الأمير لدولته:

يرى بعض المؤرخين أن دولة الأمير تميزت بانبثاقها عن إرادة شعبية ،وبيعة شيخية في عهد كانت تعيش فيه الدولة الإسلامية على السلطانية ،فلذلك يقول الأمير عبد القادر حين تولى الإمارة : " إذا كنت قد رضيت بالإمارة ليكون لي حق السير في الطليعة ،والسير بكم إلى المعارك في سبيل الله ".

وهكذا يخاطب شعبه بوحي الواجب الديني والوازع الوطني فيرى المنصب تكليفا له بأن يتحمل أعباء المسؤولية ويقوم بشرف الجهاد في سبيل الله.[2]

فأول شيء ابتدأ به النظر في أمر القضاة وأخيار العدل لها في كل موطن ،والسؤال على المؤتمنين في كل قبيلة ليعنيهم لسعاية وجباية أموال الصدقات من مواشي وغيرها ،بعد أن ولي كبير كل وفد على قبيلته عملا بالأثر الوارد عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه :"وأن تجيزوا الفد بما كنت أجيزه ،أي من كسوة ومعاملة"[3]ولهذا لابد من ذكر أهم الخطوات التي قام بها أهم الخطوات التي قام بها الأمير من أجل بناء دولته.

الجانب السياسي والتنظيمي :

حيث عمل الأمير على تقوية علاقات الدولة بالدول الخارجية لاسيما المجاورة منها ،تونس وليبيا في الشرق،والمغرب الأقصى في الغرب وكانت سياسته نابعة من تعاليم الدين ، ولقد نجح في سياسته التي تنبع عن الشعور بالوحدة القبلية إلى شعور بالوحدة الوطنية، وتجاوز الطبقية بين الحاكم والمحكوم ،وقد أنشأ ثماني مقاطعات يرأس كلا منهما :"خليفة " يعينه الأمير ،وقسم المقاطعة إلى دوائر ،يحكم الواحدة منها اغا ،وتضم الدائرة عددا من القبائل ،على رأس كل قبيلة "قائد" ثم تتفرغ إلى عشائر ،فيحكم العشيرة "الشيخ" وهذا التنظيم الهرمي الذي يأخذ بعين الاعتبار العلاقات البشرية والاجتماعية العامة ،والسائدة

[1] – فؤاد صالح السيد : الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا (مرجع سابق) ص :179

[2] – ديوان الأمير عبد القادر :ت–ش–ت– د:زكريا صيام (مرجع سابق) ص16

[3] – الحاج مصطفى بن التهامي – سيرة الأمير عبد القادر وجهاده: ت،ث، د: يحي عزيز (مرجع سابق) ص: 131

في ذلك الوقت لم يتمكن الفرنسيون من اختراع ما هو أفضل منه ،عندما آل حكم البلاد إليهم فاكتفوا باعتماده ،كما هو ،كما أن الأمير كان يصدر أوامره إلى خلفائه ،فتنتقل بالتدرج إلى من دونهم ،وكذلك ترفع القضايا الكبرى من الشيخ إلى من يليه في المنصب ،حتى تصل إلى الأمير.

أما القضايا الأخرى فيقوم المسئولون بالنظر فيها كل حسب صلاحياته المنوطة به .[1]

ويصف كاتبه الخاص" قدور بن رويلة" عدالته بأنها لينة وصارمة ،وفي الوقت ذاته يحكم بمقتضى الشريعة ،فلا يتسامح مع من يرتكب خطأ كبيرا ولا يتورع عن معاقبة ابنه و الاقتصاص منه إذا اقترف ما يستحق المعاقبة و الاقتصاص كما اشترط في قضاته أن يعرف الواحد منهم بالعلم ، و التقوى و الفضل والنزاهة و أن يفصل في القضايا التي تعرض له بموجب الشريعة الإسلامية.

ب-الجانب العسكري:

أراد الأمير أن ينشئ جيشا نظاميا، يواجه به العدو الفرنسي و عمل على الاستفادة من خبرة المدربين الأجانب الذين استقدمهم لتدريب جنوده ، و الاستفادة أيضا ممن خدموا في صفوف الجيش المصري و التونسي من المسلمين ليخرج مدربين من أبناء وطنه ، و نظم الجيش بما يلائم إمكانيات الدولة ، ماديا و بشريا ، فقسمه إلي ثلاثة أصناف جعل على كل صنف رئيسا:[2]

1.الفرسان- 2.المشاة- 3. المدفعيون

كما أنشأ مصانع الأسلحة لتزويد جيشه بما يحتاجه منها فضلا عن معامل الذخيرة فبعد أن شيد حصن "تاكدمت" أقام فيه صناعة البوارود ، و حرباتها ، و السيوف ، و غيرها من أدوات الحرب و مهماتها، بحيث ابتني الأمير في كل من معسكر و مليانة المدية مصانع للأسلحة ، و معامل بارود و رصاص ، و أنشأ مصنع المدافع بتلمسان و كان يحرص علي تحديث الجيش و أدواته الحربية ما وسعه ذلك ، و شعر

[1] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري ،ت،ش، ت، د:زكريا صيام : ص: 19

[2] – الأمير عبد القادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ،ش،ت- د-ممدوح حقي ،دار اليقظة العربية ، بيروت – الطبعة الثانية ،ص:192

بحاجة المواقع الإستراتيجية إلي تحصين ، فشيد حصونا أشهرها حصن "تاكدمت" و سعيدة و سبدو و بوغار و سباو و عريب و بوخرشفة و طازة .[1]

ج- الجانب التعليمي:

إن الأمير كان يدرك جيدا أن العلم عنصر أساسي في بناء المجتمع ، و من أجل هذا كان يتسامح مع طلبة العلم ، فيعفيهم من الضرائب ، و يكافئ المجتهد منهم ، ونراه يولي عناية كبرى للكتب المطبوعة و المخطوطة ، فبلغ منه أن يصدر عقوبات رادعة في حق من يعبث بالكتب أو يعمل علي إفسادها و قد اهتم جنوده بإحضار ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات بعد انتهاء المعارك و العودة بها إلي الأمير و قد أنشأ مكتبة له في "الزمالة" جمع فيها كثير من الكتب القيمة ، كما أنه كان كثير الاهتمام بتأليف الكتب حيث ترك أربعة مؤلفات في النثر و ديوان في شعر تدل جميعها علي تعمقه في مسائل العلم و الأدب والفقه وغيرها من معارف عصره.[2]

بالإضافة إلى الجانب السياسي والتنظيمي و الجانب العسكري و الجانب التعليمي هناك الجانب الاقتصادي و الذي حضي باهتمام كبير من قبل الأمير بحيث كان عماد هذا الجانب هو الزكاة و الضرائب و الأموال التي تجود بها نفوس المسلمين من أجل تجهيز المجاهدين و قد بنى دار لصك النقود و جعلها من الفضة و النحاس كتب على أحد وجهي القطعة عبارات دينية و وجهها آخر اسمه تخليدا لمقاومته المستعمرين ،كما اهتم بالجانب الصحي فأنشأ العيادات و الصيدليات و وفر الأطباء في مختلف أنحاء إمارته.

أما الجانب الاجتماعي فكان الأمير حريصا علي ربط أواصر الأخوة الإسلامية بين الناس و التحلي بمكارم الأخلاق لمواجهة الهجمة الشرسة التي يقوم بها العدو للعصف بكل صفات المجتمع الأصلية ، وكان مثال القائد المتواضع المتقشف في وقت يحتاج فيه المسلمين لتسخير ما يمتلكونه في سبيل الله و رفع راية الجهاد فقد صرح الجينرال "بيجو" بعد مقابلة الأمير بقوله:"تأملت هيئته و لباسه الذي لم يكن يغاير

[1] - ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ش،ت: د- زكريا صيام (مرجع سابق) ص:23

[2] - ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ت،ش،ث- د :زكريا صيام (مرجع سابق) ص:24

لباس أبسط العرب ، له هيئة الناسك الورع" كما أورد"توستان مانوار" شهادة مفادها أن الأمير كان يتربع علي حصير تحت شجرة متكئا علي صندوق خشبي شبيه بالصناديق التي نراها لدى جميع الباعة وروى قدور ابن رويلة أنه:"كان زهيدا في دنياه لا يتعلق بحطامها و يجهد نفسه في الابتعاد عن ذلك طعامه عادي و بسيط ، و لباسه كذلك يقوم الليل مصليا و مسبحا ، و لا أفضل عنده من الصلاة و الصوم تحاشيا للتردي في الخطيئة"[1]

أما المعاهدات الدولية التي أبرمها الأمير مع الدول الأجنبية بصفة عامة ، ومع فرنسا بصفة خاصة أذكر أبرزها معاهدتين هما: معاهدة "دي ميشال" ومعاهدة "تافنا" و هذا كله من أجل أن يتبين و يتضح لقارئ نصوصهما حقيقة المقاومة الصلبة التي وقفتها دولة الأمير في وجه أعتا هجمة تعرضت لها البلاد و يرى مدى تحقيقها مكانة هامة في نظر العدو نفسه .[2]

وخلاصة كل هذا يمكن القول بأن الأمير رغم أنه كان شديد التواضع و الزهد في الدنيا ، إلا أنه استطاع بشجاعته و حنكته و ذكاءه أن يقف في وجه دولة عظيمة و قوية مثل فرنسا في ذلك الوقت ، بل أكثر من ذلك استطاع أن يؤسس دولته على أسس صلبة عمادها الدين الإسلامي و الشريعة الإسلامية و قام بتنظيمها أحسن تنظيم ، فكان بذلك قدوة لكل جزائري و فخرا لكل من ينتمي إلي هذه البلاد.

6-وفاته:

من أغرب ما حدث في حياة الأمير أنه رأى أصدقاءه وذويه ينعونه وهو مازال على قيد الحياة،وقرأ بنفسه برقيات التعازي وقصائد التأبين والرثاء ،تفد إلى بيته من كل جهة وهذا بسبب أن المرجفون قد أشاعوا نبأ وفاته ،سنة ست ومائتين وألف ،فبادر رجال الصحافة إلى نشر الخبر ،وطارت البرقيات والرسائل إلى أسرته من مختلف أنحاء العالم ،فاطلع على ما كتب عنه ،ونسمع ما قيل فيه ،ثم قال:"إن الموت لابد منه

[1] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ت،ش،،ت :زكريا صيام (مرجع سابق) ص:27

[2]– المرجع نفسه :ص 28

عند نهاية الأجل ،والحمد الله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي ،وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق"[1]

ومع بداية عام الثلاثمائة بعد الألف للهجرة،أخذ الأمير يشكو من آلام عديد في جسمه،فتردد على الأطباء وتناوبوا معالجته ، ولكن القدر أقوى من علاجهم ،وأنفذ من اجتهادهم ،فما أن يتعاطى العقاقير والأدوية ،حتى تحاصره الأمراض ،ويقترب أجله شيئا فشيئا ،وفي ليلة التاسع عشر من رجب عام ألف وثلاثمائة ،الرابع والعشرين من ماي عام ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ،انتقلت روح الأمير إلى خالقها سبحانه ،فهرع الناس إلى قصر "دمر "حيث يتواجد جثمانه،وفي نهار اليوم التالي حمل إلى بيته في دمشق ليجهز ،ويصلي عليه بالمسجد الأموي ،ثم شيعت جنازته إلى حي الصالحية ودفن بجوار الشيخ محي الدين ابن عربي داخل قبة مسجده.

وبعد أن تحقق النصر للثورة الجزائرية بادر رجالها إلى تجسيد وفائهم نحو الأمير عبد القادر ،فنقلوا رفاته من العاصمة السورية أغلى العاصمة الجزائرية في الرابع من شهر جويلية عام ألف وتسع مائة وستة وستين ونقشوا على ضريحه عبارة أطلقها في وجه فرنسا حين كان أسيرا بين يديها ،تقول :" لو جمعت فرنسا سائر أموالها ،ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا فقيرا معدما ،لاخترت أن أكون حرا فقيرا"[2]

وهذه العبارة أكبر دليل على قوة الأمير وشجاعته وقناعته وأن أهم دوافعه هي العمل الإنساني هي الدوافع الحقيقية التي تولد القوة الذاتية والسلام ،وهي الشعور الدائم الحي بالواجب ،والثقة التامة المبتهجة المتواضعة في الله ،وبهذا استطاع الأمير أن يخلد نفسه في عقول أبناء وطنه ،وترك أثرا في حياتهم فقد أصبح رمزا من رموز السيادة الوطنية ،وفخرا لكل من يقول أنا جزائري ،وارتبط اسمه بدولته التي تعب من أجل تأسيسها وضح بكل ما يملك وتنازل على كل ما يحب في سبيل قيام دولة الجزائرية مستقلة قائمة بذاتها فكل ما نقول الجزائر لابد من ذكر الأمير .

[1] – الأمير عبد القادر :تحفة الزائر : ش،ت، د:ممدوح حق (مرجع سابق) ص 807

[2] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ت،ش،ت – د: زكريا صيام (مرجع سابق) ص:55

7-آثـاره:

يمكن تقسيم آثار الأمير عبد القادر إلى قسمين هما :

الآثار الشعرية :

تتمثل أولا في :

الديوان :يعتبر هذا الديوان من أكبر آثار الأمير الشعرية ،بحيث لم ينظم في فترة زمنية معينة ولا في بقعة جغرافية محددة وإنما نظم على فترات متقطعة فقد رافق حياة الأمير منذ شبابه في أرض الجزائر إلى وفاته في دمشق ،بحيث حاولت فرنسا جمع شعر الأمير عندما ظهر كتاب بعنوان "أشعار الأمير وفي هذا الكتاب بعض أشعار الأمير عبد القادر ، والقوانين العسكرية التي كانت سارية المفعول في جيشه عندما كان قائما يأمر بالجهاد .

أما المحاولة الثانية فقد قام بها الأمير محمد، الذي جمع شعر والده الأمير في ديوان صغير عنوانه "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر"،وهي مجموعة حوت من شعر الأمير ما لم يثبت في كتابه المسمى "المواقف" وقد تم طبع الديوان في مصر عام 1317 هـ/1899م ،وفي مطلع الستينات من هذا القرن ،بدأت أولى محاولات العملية الصحيحة لتحقيق الديوان ،وضبطه وشرحه مع الدكتور ممدوح حقي، فظهرت الطبعة الأولى عن دار اليقظة العربية في دمشق دون تحديد تاريخ الطبع ،ويتألف هذا الديوان من ثمان وستين ومائة صفحة ،وكان من نتيجة ذلك أن "تلمس الديوان نفسه طريقه إلى قلوب القراء بغير معونة ،وعرف كثير من لم يكن يعرف قيمة الأمير عبد القادر شاعرا ، كما عرفوه ،مجاهدا كريما ،وبطلا هماما ،وسياسيا لبقا ،ورجل عبقريا"

ثم ظهر الديوان في طبعته الثانية للمحقق نفسه عن دار اليقظة العربية في بيروت ، عام 1384هـ/1964م . في أربع وعشرين ومائتي صفحة .ونشر المحقق"بمناسبة استقلال الجزائرية العربية"[1]

وكانت الطبعة الثالثة والأخيرة للمحقق نفسه ،الصادرة عن نفس دار الطبع السابقة عام 1385 هـ/1965م.في ثمان وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير ،وقد نشرت"لا طمعا بمال بل إكراما لرجولة الأمير وفحولته في محاربة الاستعمار ، وفساد والميوعة الأخلاقية ،والاستعادة ذاكره،وتمجيد جهاده،وتخليد تضحياته".

-ولقد رتب محقق الديوان "تبعا لفنونه ،فإذا هي خمسة : "الفخر والغزل والمساجلات والمناسبات والتصوف".

إذا الديوان رتب ترتيبا موضوعيا ،تبعا لموضوعاته وفنونه ،لا ترتيبا تاريخيا.حسب نظم القصائد ،أو ترتيبا ألف بائيا حسب حروف الروي.[2]

ولا تختلف هذه الطبعات الثلاث في ما بينها من حيث النص والموضوعات فلم يعتبرها تبديل أو حذف ،بل كانت واحدة في مضمونها ومحتواها.

ثانيا:القصائد الواردة في مقدمة كتاب "المواقف":

وردت هذه القصائد والمقطوعات في نهاية مقدمة كتاب" المواقف" فقط وقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة :ثلاثة منها وردت في الديوان والباقية وردت في مقدمة كتاب "المواقف" فقط،وتتميز هذه القصائد والمقطوعات بأنها تنتمي إلى فن أدبي معين وهو فن التصوف ، وعملت عدة فهارس للآثار الشعرية ،تسهيلا للبحث الأدبي واستدراكا لما تركه محقق الديوان.[3]

[1] – فؤاد صالح :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا :(مرجع سابق) ص:88،89

[2] – المرجع نفسه:ص90.

[3] – فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا(مرجع سابق) ص:92

ب- **الآثار النثرية :**

وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب: "رسالة في فنون الحرب" :تتضمن مخلص الأنظمة والقوانين العسكرية ،وأنواع المكافآت والعقوبات التي سنها الأمير لجيشه الفتي وتدل الرسالة على ما كان الأمير من بعد النظر وثاقب الرأي في أمور الحرب ونظام الجيوش ،ومع حداثة عهده بالحرب وقد ظهرت ترجمة"وشاح الكتائب" باللغة الفرنسية لأول مرة على يد الترجمان روستي(Rosetty)في شوال 1259هـ-كانون الأول 1843 م وطبعت باعتناء الجنرال ماري(Marrey) بعنوان "قوانين من الأمير عبد القادر إلى جيشه النظامي" وهذا كله بعد أن درست الرسالة دراسة علمية دقيقة في جميع جوانبها ،وبعد ثبوت الأدلة والحقائق التي لا تدع مجالا للشك ،وأثبت المحقق أن زمان تدوين الرسالة هو 15 جمادى الأولى سنة 1255هـ/ 27 تموز 1839م،ظهرت أول طبعة عربية للكتاب في ربيع الثاني 1264هـ/ آذار 1848م ،ثم توالت بعد ذلك طبعات الرسالة.[1]

المقراض الحاد لقطع الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد:

وهي رسالة مطولة رد بها على الطاعنين في دين الإسلام ممن عموا عم فضائله ،وتشبثوا بما ليس منه في شيء من بدع المارقين وأهل النفاق ،وهذا الكتاب بما فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة ،يثبت وجود الخالق العظيم لهذا الكون الهائل ،ويبرهن مدى صحة وصدق الكتب السماوية .وقد ألفه الأمير خلال إقامته أسيرا في أمبوزا (Ambouse)بفرنسا[2] وبهذا تعتبر هذه الرسالة أول المؤلفات النثرية التي ألفها خارج أرض الجزائر بعد نفيه عام 1264هـ/1847م.

وهذه الرسالة حصيلة عمر طويل قضي في التقصي والبحث والتنقيب والتمحيص لكل ما روي ونقل ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية.

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

[1] - المرجع نفسه ص:93-94

[2] - الأمير محمد بن عبد القادر :تحفة الزائر:ش،ت، د:محمود حقي (مرجع سابق) ص542

وهي رسالة مطولة أيضا تتضمن مسائل جمة في مختلف العلوم كالتاريخ والفلسفة والدين...وهي رسالة في الحكمة والشريعة وتوافقها،ومحاولة الصلة بينهما،واقتران احدهما بالأخرى ، وائتلافها نصا وروحا،[1] ألف الأمير هذه الرسالة أثناء إقامته في بروسة (Brousse)وهي تعد الرسالة الثانية التي ألفها الأمير خارج الوطن بعد " المقراض الحاد" ،وأسلوب الأمير في هذه الرسالة واضح بين يختلف عن أسلوب القرون الوسطى " ولذا يعد الأمير عبد القادر واحدا من تلك الفئة المجددة التي جفت الطرق المتكفلة وأنست إلى الأسلوب المرسل المطبوع " وإلى جانب التجديد الأسلوبي ،تجديد موضوعي ،فالرسالة إسهام لا بأس به من الأمير عبد القادر في الأبحاث الفلسفية على عهده ،وقد أصدرها الأمير في عهد كانت فيه مباحث معاصريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية وغيرها.

المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:

هو كتاب من القطع الكبير ، يشتمل على اثنين وسبعين وثلاثمائة موقفا ، موضوعه التصوف والفكرة التصوفية ،على غرار " الفتوحات المكية" للشيخ محي الدين ابن عربي ،وفيه مباحث صوفية وتفسير آيات القرآنية ،وشرح أحاديث نبوية وبسط للعقيدة الإسلامية ،ألف الأمير كتابه هذا في المرحلة الثالثة من حياته عند استقراره النهائي " في مدينة دمشق".[2]

تعليقات على حاشية جده عبد القادر في علم الكلام :

أغلب الظن أن الأمير قد دون هذه التعليقات على الحاشية جده،في المرحلة الأولى من حياته ،بعد عودته من المشرق وتأدية فريضة الحج ،أي عام 1243هـ/ 1828م ،وهي دليل على أن الأمير كان متمكنا من علم الكلام ،وإلا لم استطاع أن يبدي بعض الملاحظات ،والآراء والتعليقات على حاشية موضوعها في علم الكلام والتوحيد.

الصافنات الجياد :

[1] – الأمير عبد الجزائري : ذكرى العاقل وتنبيه الغافل : ت– ث:د– ممدوح حقي ،منشورات دار اليقظة العربية ، بيروت :1966:ص 83 ، 84

[2] – الأمير عبد القادر الجزائري :المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد : منشورات دار اليقظة عربية دمشق : الطبعة الثانية :ص15

لم يتطرق أحد من المؤرخين القدامى والمحدثين لهذا الكتاب ،لا من قريب و لا من بعيد ،اكتفوا بالتعريف الموجز البسيط فقالوا : " كتاب في محاسن الخيل وصفاتها"ويبدو أن نسبة الكتاب للأمير عبد القادر عير صحيحة ،والدليل على ذلك ،أن كل الذين أرخو لحياة محمد بن عبد القادر الجزائري ،أجمعو على كتابي: "عقد الاجياد في الصافنات الجياد" ومختصره"نخبة عقد الاجياد " هما من مؤلفاته"عقد الاجياد في الصافنات الجياد "

رسائل متنوعة :

لقد تعددت رسائل الأمير وكتاباته إلى معارفه ومحبيه وهي رسائل لو جمعت لبلغت عدة مجلدات ومن أهم هذه الرسائل:

رسائله السياسية التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا وقوادها الحربيين

رسائله إلى الأسقف الفرنسي دوبوش(Dupuch)

أجوبة الأمر عن العشرين سؤالا التي وجهها إليه الجنرال دوماس (Daumas)

رسائله إلى الزعيم اللبناني يوسف بك كرم

وخلاصة هذا المبحث يمكن القول أن الأمير كرس نفسه للعمل الديني في معزل عن الناس منذ شبابه ،ولكن بعد أن حلت أزمة الاستعمار ببلاده ،ناداه الواجب من معزله ووضعه على رأس الأحداث ، وانبعثت بذور وعبقريته الكامنة دفعة واحدة في كامل النضج وسطع نجمة في عظمة لا تقارن كداعية وزعيم للجهاد ضد اعتداء الدولة المسيحية وضد جيوش هذه الدولة مدة خمسة عشر سنة ،بقوة أدنى بكثير من قوتها ،ووضع الأسس لدولة إسلامية ،وأعطى في شخصه لرعاياه نموذجا للشجاعة والقوة النشاط والمثابرة والورع والحماسة ،وإن هذا البطل الإسلامي اللامع غير المساوم قد أخذ في دورة عجيبة من دورات الحظ ،مكانة ممتازة وبارزة في العالم المسيحي ،فقد أصبح عضوا في كثير من جمعياتها الأدبية والعلمية ،وتراسل على قدم المساواة والصداقة مع أشهر رجالها.[1]

[1] – شارل هنري تشرشل :حياة الأمير عبد القادر :ت،ث، ت– أبو قاسم سعد الله ،عالم المعرفة (الجزائر) ص 372 (بتصرف)

ودوره كما هو معروف لدى الخاص والعام ،ليس له مضاه في أخبار الرجال العظماء غير العادين ،لظهوره المفاجئ غير المتوقع ،ولتنوعه مراحله وغرابتها ،ولأطوار تطوره غير المنتظرة ،فلم يكن هناك دور أكثر نموذجية للغز الوجود الإنساني ،ولأكثر تعبيرا عن حقيقة قولة الرجل الحكيم حين قال :"إن رحيل الإنسان من أمر الله فكيف إذن يستطيع الإنسان أن يفهم طريقه من دور الأمير عبد القادر

وطالما اشتاقت نفس الأمير عبد القادر إلى تحقيق أمل ورغبة وهي أن يكون قادرا عاجلا أو آجلا على إكمال واجباته الدينية بتتويجها بعمل آخر من أعمال العبادة ،ففي عين المسلم الحقيقي ليس هناك رتبة دينيوية أو تقدير يمكن أن يقارن بذلك مثل الميزة العالية التي يطلق على صاحبها "مجاور النبي"[1]

وبعدما تحدثت في هذا المبحث عن الأمير المجاهد والمؤسس لدولة قائمة بذاتها والجهود التي بذلها من أجل تنظيم هذه الدولة ومحاربة الأعداء الذين كانوا يتربصون بها سأنتقل للحديث عن الأمير الشاعر في المبحث الثاني وعن معالم شعره البنيوية والأغراض المختلفة التي نظم فيها فالأمير كما كان قائدا وأميرا ومجاهدا شجاعا وفذا بمعنى الكلمة كان في نفس الوقت شاعرا متمكنا ومبدعا.

المبحث الثاني : شعر الأمير عبد القادر :

بدء الأمير عبد القادر كتابة الشعر شابا ، كما تدل على ذالك البيعة الأولى التي تصفه بالشاعر الناثر

وقد دأب على كتابة الشعر إلى آخر أيام حياته،ولم يتصرف عنه في كل حالاته ،سواء في مرحلة المقاومة والجهاد في سبيل الله في الجزائر ،أو في مرحلة الاعتقال بفرنسا ،أو في مرحلة الاستقرار في الشام ، ومن المؤسف أن يكون القسم الأول من شعر ، قد ضاع أغلبه ،من خلال هجوم الفرنسيين على الزمالة ،واستيلائهم على مكتبة الأمير وأوراقه الخاصة.[2]

– أما القسم المتعلق بالمرحلتين التالين ، فقد أثبت ما يتعلق منه بالتصوف في كتابه "الموافق" وقد اعتنى به ابنه محمد بعد وفاته بجمع ما لم يكن منه صوفيا في ديوان صغير سماه عند الطبع "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر" وهذا الديوان لا يجمع شعر الأمير ولا حتى المدون كاملا ناهيك عما حل به من

[1] – شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر :ت،ث،ت – أبو قاسم سعد الله (مرجع سابق) ص.368

[2] – قول الدكتور ناصر: (بتصرف): ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ت، ش، د، زكريا صيام (مرجع سابق) ص 60

شتات ، ومما يؤخذ على هذا الديوان لا يجمع شعر الأمير ولا حتى المدون كاملا نهابك عما حل به من شتات ،ومما يؤخذ على هذا الديوان، الذي يعد أحد مصادر شعر الأمير عبد القادر الرئيسية ، من الشروح والتعليقات التي يتعطش إليها الباحث إلا ما ندر من شذرات لا تفي بالحاجة ، فضلا عن كونه لا ينتظم كل ما هو مثبت أو ثابت من شعر الأمير في بطون الكتب ،وخلوه أيضا من فهارس القصائد والقوافي وما إلى ذلك .

أما كتاب "تحفة الزائر "فقد ألفه ابنه محمد سجلا تاريخيا ومصنفا أدبيا من جزأين ،أوضح فيه جوانب متعددة من التاريخ الجزائر عبر القرون عديدة ، وفصل القول في الحياة ولده تفصيلا وافيا ، و اشتمل الكتاب على بعض أشعار الأمير عبد القادر في مواضع متفرقة.

أما الثالث من مصادر شعر الأمير ، كتابه الذي ألفه في دمشق من ثلاثة أجزاء بعنوان "الموافق في التصوف والمواعظ والإرشاد " ويعد أشهر كتبه وأكثرها قيمة ، وتضمن الكتاب لاسيما الجزء الأول منه قدرا معينا من شعره ، الذي لم يتعرض إليه ابنه في ديوان "نزهة الخاطر " ولكننا نجده قد تعرض إلى بعضه في كتابه " تحفة الزائر " مع اختلاف الرواية بينهما في كثير من الأحوال.[1]

و بهذا يمكن القول أنه لم يوجد ديوان يجمع كل ما يثبت صحته من شعر الأمير عبد القادر لهذا الأبد للباحثين أن يقوموا بتحقيق شعره تحقيقا موضوعيا ، وشرحه والتعليق عليه ،وذالك لأنه يعتبر جزءا من تراث الجزائر خاصة ، وتراث الأمة العربية والإسلامية عامة .

كما تميز شعر الأمير عبد القادر بمجموعة من المعالم البنيوية جعلت منه شعرا منفردا ومتميزا عن باقي الأشعار التي كانت في عصره.

أ/ معالم شعره البنيوية:

معجم الأمير الفني ثري بروافد تتجاوز العصر الذي عاش فيه حيث يرجع أصول بعضها إلى العصر الجاهلي ، مرورا بالعصور التي تلت الجاهلية ويتطلع بعضها الآخر إلى آفاق العصر الحديث ، فضلا عن

[1] – المرجع نفسه ص 60-61-62

ارتكاز محورها الأساسي على عصر الانحطاط ، الذي ولد فيه الأمير وكان واقعه المعيشي بكل أبعاده ، كما أن للقرآن الكريم مدد وافر في بنية القصيدة الأميرية ، ذالك أنه سرى في عروق الأمير عبد القادر منذ نعومة أظافره ، حين حفظه على يدي والده وعلماء قريته ، والتأثر بتعاليمه أنما تأثر لدى نشأته في أسرة تنتمي إلى الزاوية القادرية ، مما كان له صدى في أقواله وأفعاله وسيرته بين الناس فاختاروه أميرا عليهم يحمل رسالة الجهاد ضد العدو ويبني أركان دولة الإسلامية .[1]

وتتجلى مظاهر التأثر بكتاب الله في شعره ، باقتباس اللفظ تارة ، والمعنى تارة أخرى والأسلوب تارة ثالثة على النحو الذي ، نلمسها في الأبيات التالية :

يا صاح ، إنك لو حضرت سماءنا وقت انشقاقها حين لا تتماسك

وشهدت أرضا زلزلت زلزلها ألقت ما فيها ، والجبال دكادك

ونظرت أرض بدلت ، وسماءنا وبرزخنا حتللنا ، وكل هالك

وشهدت صعقتنا والإله قائل: الملك لي اليوم ، ما لي مشارك

لشهدت شيئا لا يطاق شهوده و سمعت ما لا يدرك دارك[2]

ومثلما تأثر الأمير بالقرآن الكريم كذالك تأثر بالشعراء الجاهلين أمثال : امرئ ألقيس وزهير وعنترة وعمر ابن كلثوم وسماحة الطبع في الشعر لبيد وكعب بن مالك ،بعد دخولهما الإسلام ومثانة الترتيب عند الفرزدق في العصر الأموي وعلو الهمة في فخر المتبني وأبي فراس إبان العهد العباسي كل أولئك كان لهم نصيب التأثر في بنية القصيدة الأميرية فضلا عن عصر الأمير وبيئته اللتين صدر عنهما في قصيده ، وهذا التأثير لا يعني أن الأمير جمع قدرات أولئك الشعراء وسخرها في شعره ، و أن قصائده صورة طبق الأصل عن قصائدهم ، بل إن كل شاعر له إمكاناته وأدواته التي تميزه عن غيره ، وتبقى الفوارق قائمة بين المؤثر والمتأثر في أبناء العصر الواحد والبيئة ذاتها ، فما بالك في أناس تفضل بينهم قرون غابرة ؟ ودليل على ذالك الأمير عبد القادر قد نظم قصائد في عدة أغراض مختلفة كالغزل والمدح والوصف وجاء بما هو

[1] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري : ت – ش – د:زكريا صيام :(مرجع سابق) ص:72

[2] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري : ج- ت – ش – د :العربي دحو(مرجع سابق) ص:129

مختلف عن كل الشعراء الذين تأثريهم وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي ألا هو الأغراض التي نظم فيها الأمير.

ب- الأغراض التي نظم فيها الأمير

أ/ الفخر والحماسة

يعتبر شعر الفخر والحماسة من أفضل شعره المنظوم في فترة جهاده وقد صور واقع البلاد الجزائرية ، وقدم لنا صورة واضحة قوية عن شخصية وبسالة جيشه الفتي ، وجسم وقائعه الحربية ، وينقسم شعر الفخر والحماسة عند الأمير إلى قسمين :

أولا: الفخر الطبيعي (الفطري) :

تناول الأمير في هذا النوع من الفخر ناحيتين أساسيتين وهما : الفخر بنسبه النبوي الشريف ،وهي ظاهرة واضحة بينة في شعره والفخر بعروبته وهي ظاهرة أقل بروزا من الأولى .[1]

ثانيا: الفخر الوضعي (الاكتسابي)

لا يكتفي الأمير بالنسب الطبيعي الفطري ، بل يحاول جاهدا أن يرتقي المكارم ، ويرحل في طلبها ، فيركب الأخطار،ويحمل الأهوال والمشتقات ليصل إلى غاية إنسانية نبيلة وهدف أخلاقي كريم فيحلوا له أن يقارن بينه وبين غيره من الناس فهو دائم الاستعجال لا يعرف الهدوء والتأني في طلب هذه المكارم التي يعجز عنها الآخرون لقلة صبرهم وضعف إرادتهم. بحيث يقول الأمير في هذه الأبيات :

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول وخضنا أبحرا ولها زجال

إذا عنها تواني الغير عجزا فنحن الراحلون لها العجال[2]

[1] – فؤاد صالح السيد : الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا (مرجع سابق) ص:191

[2] – ديوان الشاعر عبد القادر الجزائري :ج – ت – ش وت:د:العربي دحو:ص46

ومن المناقب الأخلاقية الحميدة التي يحاول الشاعر جاهدا أن يرحل في طلبها التنزه عن اللؤم وصد الضيم والأذى والحلم والكرم و السياسة العادلة والصبر والإرادة.

ولا يقف الأمير في فخره عند هذه الحدود الأخلاقية بل تعداها إلى الفخر بثقافته وعلمه وهما يضافان إلى شجاعته في حروبه ومعاركه ،ومن الواضح أن هذه الثقافة التي يفتخر بها الأمير هي ثقافة دينية إسلامية بحتة. فقد تبخر في علم الحديث وفخر بأن كل أمة ليأخذ عنه الحديث عاد موفور الزاد مرتويا من طيب المورد ، وإلى جانب الحديث يوجد الفقه الملكي الذي خاض في مجالسه ، وأخيرا توجد العلوم العربية ، ومنها علم النحو خاصة وفي ذالك الفخر بثقافته اللغوية :

لنا سفن بحر الحديث بها جرى وخاضت فطاب الورد ممن بها ارتوى

وإن رمت فقه الأصبحي فعج على مجالسنا تشهد لواء لعنا دوا

وإن شئت نحوا فانحنا تلق ماله غدا يذعن البصري زهدا بما روى[1]

وبعد هذه المرحلة الطويلة من مراحل الفخر الطبيعي الفطري والفخر الوضعي الاكتسابي فوجئ الأمير بتاج الإمارة في بلاد المغرب الأوسط ، وتحمل مسؤولية القيام بأمر الجهاد لتخليص البلاد من أيدي الفرنسيين .

كما أن الشعر الفخر والحماسة عند الأمير كان يهدف أيضا إلى الدفاع عن الكرامة الوطن ، وإبقاء روح الكفاح والجهاد في نفوس الشعب ، فقد حمل الأمير مسؤولية الإمارة والجهاد ، ومسؤولية الرسالة الشعرية والتي تظهر جليا في حمله لواء الشعر الحماسي ، الغني بالنفحات البطولية ، وقد اعتبر بعضهم أن الأمير عبد القادر "أول شاعر في المغرب عامة وفي الجزائر بالخصوص ، تعاطى شعر الحماسة.

ويحرص الأمير كل الحرص في أثناء حروبه على ألا يترك الفرصة تذهب سدى فيتوجه إلى شعبه الوفي بالقصائد الحماسية ، فقد افتتح الأمير عهد الشعر الحماسي بمقصودته الكبرى التي تعتبر من أفضل

[1] – ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج – ت– ش وت :د:العربي دحو:ص 53

قصائده التي تصور فخره وحماسه البطولي والتي نظمها عقب معركتي "خنق النطاح الأولى ، وخنق النطاح الثانية " وبعد واقعة " برج رأس العين "[1]

وهكذا تكاملت الصورة الفخرية عند شاعرنا في ناحيتين أساسيتين هما:

التوافق بين الظاهر والباطن أولا فالفخر عند الأمير ليس فخرا بالمادة ، بل بالجهور وتآلف النسب الطبيعي مع النسب الوضعي الاكتسابي ثانيا ، بحيث أن الأمير يعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم هو الجد القديم الذي علت به قبيلة قريش ،بيدا أنه لا يكتفي بهذا المجد التليد ،فيضيق إليه نسبيا وضعيا اكتسابيا اختاره بملء حريته وهذا سبب هو أفعاله الطيبة الحميدة.

ب/ **الغزل:**

لفهم شعر الغزل عند الأمير لابد من معرفة علاقة الأمير بالمرأة بحيث أن الأمير نفسه يتعجب من سطوة الحب على قلبه ونفسه ، فأدى ذالك إلى انهزام شجاعته القوية ويبدو أن هذا يعود إلى سببين رئيسين هما: الأمومة ، فقد كان الأمير شديد الإعجاب والتعلق بأمه ، وكان يحترمها كثيرا ويأخذ برأيها ويستشيرها في الملمات الصعبة ، والأمور العسيرة ، فربما كان لهذه المحبة العميقة ، والخضوع الكلي ، والإعجاب الشديد الذي كان بيده الأمير لوالدته الأثر الفعال في تحويل محبته ، وخضوعه ، وإعجابه إلى المرأة بشكل عام وأساسي أما السبب الرئيسي الثاني في خضوع الأمير للمرأة فهو سلطان الجمال ، فمن المعروف عن الأمير أنه "كان عصبي المزاج ،عنيفي الدفاع فيما يعتقد أنه الحق ، لايلين للقوة مهما قست وطغت ،فيه شيء من عنجهية البادية وعنادها ، على ليونة في القلب أمام الجمال ، وتراخ لعزة المرأة "

والأمير نفسه تملكه العجب من هذا الواقع الغريب العجيب، لكنه يستدرك ليذكرنا بأنه قبل كل شيء فارس ويليق بالفارس أن يخضع لسلطان واحد لاغير: هو سلطان الجمال الذي يتملك مهج الفرسان ، ويخضعهم لسلطانه.[2]

1/ **طبيعة غزل الأمير:**

[1] – فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا:ص 199/198

[2] – المرجع نفسه :ص:217

لم يكن غزل الأمير غزلا ماديا ماجنا ، بل كان غزلا روحيا ينتمي إلى التيار العذري في صدقه ، وصفائه ،وإخلاصه النبيل ، بحيث كانت هناك أسباب جعلت الأمير ينهج في غزله هذا النهج سأذكر سببين أساسيين هما :

تربية الأمير الإسلامية والتي تلقاها مدى حياته فغذت هذه التربية النواحي الروحية و الخلقية في الأمير ,فجعلته يتسامى عن المكاسب الأرضية المادية الفانية,و يتطلع إلى المكاسب النفسية و الروحية أما السبب الثاني فيتمثل في دراسته الصوفية :بحيث تأثر الأمير بالتصوف في مراحل حياته كلها,فالتآلف الذي كان بين التصوف و نفسية الأمير،ورغباته و ميولا ته الفطرية قد أدى إلى بروز الجوانب الروحية الخلقية بروزا واضحا في سلوكه اليومي و تصرفاته الحياتية،فانعكست هذه الناحية الروحية الخلقية في إشعاره الغزلية.فكان لهذا الاتجاه العذري في الغزل عند الأمير,غزل الحنين و الأنين،غزل الأسى و اللوعة و الحرمان .[1]

2/ خصائص غزل الأمير :

لقد تميز الأمير بمجموعة من الخصائص من أهمها:

-بروز شخصية الأمير بحيث كان يركز تركيزا شديدا في غزله على شخصية ،فقد جعل من نفسه نقطة ارتكاز غزله.

-الأمير دائما يطالعنا في قصائده الغزلية بصورته المأساوية التي تمثل لنا حال العاشق الغريق ،الأسير ،الضعيف الذي أضناه الهجر والوجد والصد.

-مقارنة الأمير بين نفسه الكئيبة الباكية وبين حال المحبوب في غنجه ودلاله.

- الاستلاب القلبي والعقلي ،بحيث أن الحب قد سيطر سيطرة تامة على قلب وعقل الأمير فلا يحلو للغزال الحبيب إلا أن يرتع في فؤاد الأمير.

- أمل اللقاء والفوز برؤية طيف الحبيبة لذا يتكفل النوم تكلفا علة يرى خياله في منامه فيفرح قلبه الباكي.

[1] - - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا(مرجع سابق) ص: 217

– معاناة الأمير من الألم الفراق ورضاه بحياة الذل لا يجلب العار للمحب العاشق فهو ذل محبب،وهو سبيل من السبل المؤدية إلى رضا المحبوب.

وهكذا يمكن القول أنه الأمير كان عذريا في غزله لأن التربية الإسلامية كما ذكرت سابقا،قد غذت الجوانب الروحية والخلقية في نفسية الأمير،إضافة إلى المطالعات الصوفية التي أدت إلى بروز الجوانب الروحية بروزا واضحا في سلوك الأمير وتصرفاته.[1]

ت –المدح:

لقد ألمت الظروف المختلفة على الأمير ،فأدى ذلك إلى ظهور ثلاثة أنواع من المدح في أشعار الأمير

المدح الوصفي : انبثق هذا النوع من المدح من خلال خضوع الأمير شيوخه وتذلله لهم ،بحيث تعرض الأمير في قصائده المدحية الصوفية إلى مدح شيخين فقط من شيوخه وهما: الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني ،والذي تعرف إليه خلال فترة وجوده أسيرا في أمبوزا بفرنسا والشيخ محمد الفاسي والذي تعرف إليه الأمير في أثناء رحلته الصوفية التي قام بها إلى الحجاز.[2]

لم يتطرق الأمير في مدحه الصوفي إلى النواحي المادية مطلقا . لم يمدح شيوخه بالجمال والسعة وغيرها من الفضائل الجسمية العرضية، بل أكد في مدحه الصوفي النواحي المعنوية الخلقية، وكيف يمكن الأمير أن يمدح شيخه بالفضائل دنيوية ، وهو قائل عنه :

وما زهرة الدنيا بشيء له يرى وليس لها يوما بمجلسه نشر[3]

وقد تميز المدح الصوفي عند الأمير بمجموعة من الخصائص أهمها :

أن الأمير افتتح عهد المديح الصوفي بقصيدة "ميمية" نضمها بمناسبة لقاءه الأول مع قطب من أقطاب الصوفية المشهورين هو الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني في بامبواز في فرنسا ، بحيث أكد الأمير في مدحه

[1] – المرجع نفسه :ص :218

[2] – المرجع نفسه ص238

[3] – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :ت،ش،ث:د :زكريا صيام :ص 189

للشاذلي على ثلاثة أمور هي : جلاء الآلام والأحزان ، ثم المحبة المتبادلة بينهما ، وأخيرا منزلة الشاذلي من ابن العربي .[1]

المدح السياسي:في البداية أتحدث أولا عن إطار المدح السياسي عند الأمير ، ثمَّ أنتقل إلى الحديث عن خصائص هذا المدح من حيث مواضيعه .

أ/ إطار المدح السياسي عند الأمير:

خصص الأمير للمدح السياسي مقطوعة وقصيدتين مستقلتين تمام الاستقلال عن غيرهما من القصائد ، أي أن القصيدة السياسية كانت وحدة قائمة بذاتها فلم يأتي المدح السياسي عنده إلى جانب غيره من الفنون الأدبية في القصيدة الواحدة .

القصائد السياسية قليلة العدد نسبيا إذن ما قيست ببقية الفنون الأدبية فهي عبارة عن قصيدتين ومقطوعة كما تقدم .

تبين لنا مما تقدم أن الأمير لم يتوجه بهذه القصائد إلا ممدوح واحد هو السلطان العثماني عبد المجيد الأول .

لم ينظم هذه القصائد في سبيل التكسب،والتسلق والخطوة ، وإنما نظمها في سبيل الشكر ورد المعروف والجميل.[2]

ب/ خصائص مدحه السياسي (من حيث مواضيعه)

يبدو بوضوح لمتصفح قصائد الأمير السياسية ، أن هذه القصائد قد أكدت أكثر ما أكدت على الفكرة الدينية ، من وجوب طاعة الخليفة العثماني ، وكمال الخليفة الديني ، وحمايته للخلافة والشريعة، وإحياء

[1] – فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا :ص 239

[2] – المرجع نفسه: ص244/243

الجهاد ، وفتح القسطنطينية وكذالك فيما يتعلق بكرم السلطان في موضوع كفالته الأمير ، وأخيرا مدح جيش السلطان من زاويتين : زاوية البطولة والشجاعة أولا وزاوية أهداف هذا الجيش العسكري ثانيا.[1]

3/ المـدح الأدبــي:

أ/ إطار المدح الأدبي عند الأمير:

نظم الأمير هذه القصائد المد حية خلال الفترة الثالثة والأخيرة من حياته وهي الفترة الممتدة بين عامي 1672- 1300 هـ/1856هـ- 1883م والتي قضاها في مدينة دمشق .

أن ممدوحيه في هذه القصائد هم من الأدباء والشعراء والفقهاء ، وعلماء الدين هم يوسف بدر الدين المغربي ، ومحمد أمين الجندي ،وعبد الكريم الحمزاوي، ومحمود الحمزاوي.

تعتبر قصائد الأمير المدحية أقرب إلى مساجلات الأدبية ،منها إلى فن المدح كما عرفه كبار المداحين في الشعر العربي ، فقد كان الأمير يتبادل هذه القصائد مع ممدوحيه في المناسبات شتى ، على سبيل التقريظ، أو التهنئة ، أو المعايدة .

ب/ خصائص مدحه /الأدبي (من حيث مواضيعه)

لقد تناول الأمير جملة من الفضائل الفطرية والإرادية والتي يتمتع بها ممدوحة .وهي:

الحسب والنسب النبوي الشريف، والجمع بين طرف المحد: الفكر والشجاعة وتفضيل ممدوحه الأقلام على السيوف.وأخيرا تطرق الأمير في قصائد المدح الأدبي إلى ما يقرب من النقد الأدبي وتبدوا هذه الناحية عنده في تقريظه ومدحه لآثار ممدوحيه ومؤلفاتهم ثم تطرق إلى معاني ممدوحيه وماتتركه هذه المعاني في نفوس القراء والمستمعين .[2]

د/ الوصف:

قبل التحدث عن خصائص الوصف عند الأمير ، لابد من تحديد إطار الوصف عنده أولا ، بحيث تجسد إطار الوصف أولا : في أن فن الوصف عند الأمير قد انقسم إلى نوعين هما : الوصف البدوي والوصف

[1] - المرجع نفسه :ص246/244

[2] - المرجع نفسه :ص248،249

الحضري ، يمثل أولهما المرحلة الأولى من حياته عندما كان في الجزائر ، ويمثل ثانيهما المرحلة الثالثة من حياة الأمير عندما تنتقل في المدن المشرق العربي.

ثانيا: لم يخصص الأمير للوصف البدوي قصائد ومقطوعات مستقلة ، وإنما أورد هذا النوع من الوصف في القصائد الفخر والحماسة ، أما الوصف الحضري فقد جاء مستقلا في القصائد ومقطوعات صغيرة .

وبعد أن تحدثت عن إطار الوصف عند الأمير سننتقل للحديث عن خصائص الوصف عنده من حيث مواضيعه والتي تتمثل فيما يلي:[1]

1/ الوصف البدوي:

استوحاه الأمير من حياته البادية التي عايشها واختبرها، وقد جسد هذا النوع من الوصف ثلاثة لوحات بدوية هي: لوحة الطبيعية الصحراوية والتي تمتاز ببساطها الرملي الذي يشبه الدر في الصفاء والنقاء والتلألؤ ثم لوحة التحمل والارتحال وهي صورة تعكس حياة البدو القائمة على الحل والارتحال ، وتظهر في هذه اللوحة النواحي التقليدية مثل استعمال التشابه على عادة شعراء العصر الجاهلي في إسرافهم باستعمال التشابيه وكذالك استعمال صورة الهوادج ، وما يتعلق منهما باللون الأحمر خاصة ،وأخيرا لوحة المنازل (الخيام) البدوية بحيث تمثل الصورة الليلية لمضارب القبيلة ، فهذه المنازل التي تنزلها القبيلة تتميز بنظافتها وطهارتها من الأقدار والأوساخ.[2]

هذه هي صورة اللوحات البدوية الثلاث التي عرضها الأمير عبد القادر في معرض حديثه عن البادية ، ولو قدر لهذه اللوحات أن ترسمها يد رسام ماهر لجاءنا بلوحات فنية رائعة ،ففي الأولى كانت الطبيعة الصحراوية بجمالها الطبيعي الأخاذ وفي الثانية هذا الرحيل المعبر عن الحياة البدو في حلهم وترحالهم وفي الثالثة لوحة مضارب القبيلة ليلا .

2/ الوصف الحضري:

[1] – المرجع نفسه :ص: 253 (بتصرف)

[2] – المرجع نفسه:255،254 (بتصرف)

وهو الوصف الذي يختص المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة الأمير وقد ابتعد عن حياة البادية ، وعن حياة الحل والارتحال واتخذ مدينة دمشق محطة أخيرة من محطات حياته الشاقة والمتعبة ، ويتراوح وصفه في هذه المرحلة مابين الوصف النسخي الحسي التقريري ، والوصف التشخيصي الوجداني ويعود ذالك في الدرجة الأولى إلى الجو الفرنسي والحياتي الذي كان يحيط بالأمير أثناء نضمه للقصيدة الوصفية.[1]

هـ/ الحجازيات:

إن المقصود بالحجازيات في شعر الأمير تلك المقطوعات والأبيات التي نظمها شاعرنا في أهل الحجاز وتحديدا بأهل مكة والمدينة تشوقا ومحبة ، معبرا في ذالك عن شوقه ومحبته وهيامه بهم.

1/ إطار الحجازيات عند الأمير:

يتميز شعر الأمير الحجازي بمجموعة من الخصائص العامة من أهمها :

كان هذا الشعر الحجازي في أقله مقطوعات صغيرة ، وفي أكثره أبياته مبثوثة في تضاعف قصائده.

تميز هذا الشعر برقته ونعومته ، فقد أكثر من ذكر صبابته ووجده وتصوير حالته النفسية التي أضناها ألم البعاد عن أرض أحبته في المدينة المنورة.

أكثر الأمير من استعمال الأسلوب الخطابي، وحروف النداء والاستفهام في مخاطبته لأهل المدينة.

تدرج الشعر الحجازي عند الأمير تدرجا طبيعيا عفويا ، يوازي في نموه مراحل حياة الأمير ، فقد بدأ الشعر الحجازي بمرحلة التمني والرغبة عندما كان الأمير في أرض الجزائر ثم انتقل إلى مرحلة تصوير صبابته وهزاله بعد فراق الأحبة ، وهجره أيامهم ، ثم انتقل إلى مرحلة اللقاء في مكة والمدينة ، وعاد أخيرا إلى مرحلة الفراق ، وبعدما تحدثت عن إطار الحجازيات عند الأمير الآن سأتطرق إلى خصائص حجازيات الأمير من حيث المواضيع.[2]

2/ خصائص حجازيات الأمير (من حيث المواضيع):

[1] – المرجع نفسه :ص 257

[2] – المرجع نفسه :ص 263،264

إن الرحلة المشرقية الأولى التي قام بها الأمير مع والده لأداء فريضة الحج قد جعلت فوائده يتعلق بحب هذه الأماكن الإسلامية المقدسة ، وحب ساكنها، وكم كان يتمنى العودة إلى هذه الأماكن التي ألفها ، وأنس بها بعد أن جهاده المرير شغله عن التفكير في العودة إليها ثانية وتحقيق رغبته،ومع هذا فإنه لم ينس قط ربوعه المقدسة.

تحدث الأمير في مرحلة الفراق فتمنى الفوز بمجاورة محبوبه النبي صلى الله عليه وسلم وعمد بعدها إلى التصوير سوء حاله لمفارقة الأحبة ، ولأجل أن يخفف عن نفسه ألم الفراق والبعاد علل نفسه بذكر الأماكن الحجازية

تنتهي أخيرا رحلة العذاب والآلام في الأسر، وتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة اللقاء بعد طول الانتظار،إنه لقاء المحبة والشوق ، بعد طول غياب،أنه لقاء الفرح بعودة الأمير إلى الأرض يكحل عينيه بمريء طهارتها وقداستها.

انتهاء عهد اللقاء والمحبة وتدور الأيام دورتها لتعود مرة ثانية إلى التفريق الأحبة فما إن تذكر الأمير أن تذكر الأمير أن وقت الرحيل والابتعاد قد حان ،حتى جاءت بدموع تعبر عما في قلبه من نار تأججت فسرت في عظامه ، ثم سارت إلى جلده ، من هنا تمنى الموت قبل الرحيل والفراق.[1]

وأخيرا وفي النهاية هذا المبحث يمكن القول أن شعر الأمير كان متعدد الأغراض ومتنوع الأهداف بحيث نظم في الفخر و الحماسة ، والغزل فقد كانت قصائده الغزلية تعبر عن التجربة الشخصية الفردية البحتة ، لا أثر للعذال والوشاة فيها كما نظم في المدح ، والوصف والحجازيات، وبعدما تحدث عن الأمير كشاعر تناول في شعره أكثر الفنون الشعرية المعروفة في عصره والتي كانت لها صلة وثيقة بحياة الأمير في مختلف مراحلها ، سأتحدث في الفصل الثاني عن الأمير المتصوف وما هي الأسباب التي دفعت الأمير إلى سلوك طريق التصوف وذكر المراحل التاريخية التي مر بها تصوف الأمير.

[1] – المرجع نفسه :ص 264،265،266،267،268 بتصرف)

الفصل الثاني

التصوف في شعر الأمير

عبد القادر

تمهيد

إن التصوف الذي عرف به الأمير عبد القادر ، (23 رجب 1222هـ) (19 رجب 1300هـ) ليس عنصرا جديدا في حياته الروحية والأخلاقية ، وإنما كان جزءا من حياة أسرته التي ربته عليه وأشرب قلبه منذ صغره بذالك الجو الروحي فكان ولده محي الدين (1195هـ- 249هـ) صوفيا راسخ القدم في الطريقة القادرية ، وألف والده كتابا جليلا في التصوف عنونه ب "إرشاد المريدين"[1] وصحب الأمير عبد القادر والده في رحلته إلى الحج وزار معه بغداد وأثناء زيارته هذه زار ضريح الصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجلاني ، فكان لذالك أثر في نفسه وفي اتجاهه الذي سلكه في هذه الحياة . فقد بين لنا الأمير عبد القادر كيف بدأت حياته الروحية الصوفية في صغره وأنه كان مغرما بقراءة كتب المتصوفة فقال : "كنت مغرما بمطالعة كتب القوم (المتصوفة) رضي الله عنهم، منذ الصبا غير سالك طريقهم فكنت في أثناء المطالعة أعثر على الكلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم يقف لها شعري ، وتنقبض منها نفسي مع إيماني بكلامهم على مرادهم لأنني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة ".[2]

وأعلن الأمير عبد القادر عن تصوره للصلة بين الشريعة والحقيقة وأنهما لا ينفصلان ، حيث قال :" وكل من ادعى أنه شم رائحة من طريق أهل الله تعالى ولم يزدد لشرع تعظيما وللسنة إتباعا فهو مفتر كذَّاب ".

كما بين أهل التصوف لا يبتدعون في الدين وإنما يفهمون الدين فهما جديدا. "وأهل طريقنا رضي الله عنهم ما ادعوا الإتيان بشيء في الدين جديد وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التَّليد ، ويساعدهم الخبر المروي أنه لا يكمل فقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها كثيرا ".[3]

---

[1] – محمد بن عبد القادر :تحفة الزائر ،دار اليقظة العربية،بيروت 1384هـ – 1964 م ص932

[2] – الأمير عبد القادر ،المواقف ،دار اليقظة العربية،بيروت 1386- 1966- ج1 ص46

[3] – المصدر نفسه:ص 26

كما يمكن القول أن الأمير ذهب مذهب محي الدين بن عربي في التصوف في المرحلة الأخيرة من حياته وانشغل بمطالعة كتبه وتفسيرها ، وألف كتابا ضخما سماه "المواقف" وهو عبارة عن لحظات روحية يأخذه الله فيها عن نفسه وعن العالم ويلهمه إشارة ويلقي في قلبه معرفة ويفهمه حقيقة ويهب له علما ، قال عن هذه المواقف أنها : " نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهيبة ، وأسرار غيبية من وراء طول العقول والظهور النقول خارجة عن أنواع اكتساب والنظر في كتاب "[1]. ولكن هذا الكتاب فسر فيه أيضا كثيرا من مذهب محي الدين بن عربي وكلامه من كتابي:

"الفصوص"و"الفتوحات المكية" ويذهب إلى أن محي الدين بن عربي أخر وارث محمدي وخاتمهم ووصفه بأنه إمام العالمين بالله تعالى وبرسله. ودافع عنه ونفى عنه كتبا نسبت إليه مؤلفة في الملاحم مثل كتاب : "الشجرة العثمانية " وكذالك الفتاوى المنسوبة إليه وتولى الأمير طبع "الفتوحات المكية" لأول مرة وأوصى أن يدفن بجانب ابن عربي . وليس غريبا أن يتخذ الأمير من ابن عربي إماما فقد كان سبيل ابن عربي سبيل الأممية والإنسانية ، إذ أن عقيدة وحدة الوجوه التي اعتنقها ابن العربي هي عقيدة تؤمن بالكمال الإنساني و بالتكافؤ الثقافي والروحي والمعرفي لدى الأمم ، لأنها نظرت إلى البشر في ضوء القيمة الكريمة التي خصه الله بها واعتبارا لوظيفة الاستخلاف التي أسندها إليه من بين سائر مخلوقاته.[2]

ما درس الأمير كذالك كتاب" الإحياء" للغزالي وتأثر به ونقل عنه ودافع ووافقه في رأيه أنه " ليس في الإمكان أبدع مما كان " وأشار إلى كتب أخرى للغزالي مثل كتاب "التفرقة".[3]

وهكذا يمكن القول بأن الأمير عبد القادر استقل بتجاربه الروحية وطريقه العرفاني الذاتي كما يدل على كتابه "الموافق". كما أن الصوفي الواصل يصبح يتلقى المعرفة عن طريق إشراق التجليات الإلهية في

[1]- الأمير عبد القادر ، المواقف ج1 ص09

[2]- المصدر نفسه:ج1،ص26

[3]- المصدر نفسه :ج2:ص51

قلبه ، وأما الطريق الأفقي واعتماده على المؤلفات الصوفية فليس ذالك للتعبير عن تجاربه الروحية الداخلية.

المبحث الأول: الأسباب التي دفعت الأمير على إتباع طريق التصوف:

إن الأسباب التي دفعت الأمير على السلوك طريق التصوف كثيرة ومتنوعة نذكر منها:

أ/ نزعته الإنسانية:

وهي النسب الإرادي الحقيقي الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا أو أوروبيا مسلما أو مسيحيا، إذ أن أساس الديانة وأصولها خلافا فيها ، بين الأنبياء من آدم إلى محمد عليه الصلاة و السلام ، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه.[1] إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في بناء وجوده في الجزائر وخارجها منفيا ، يدرك أن الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لاتؤمن بالحدود والحواجز والعراقيل بين البشر وخير دليل على ذالك تدخله في أثناء فتنة (1276هـ/1860م) المشئومة في دمشق ، فقد شهد له التاريخ بهذا الموقف البطولي الخالد. الذي كشف عن رجولته وإيمانه وعن طابع الإسلام والعروبة الواضح في شمائله ، فقد استطاع أن يحقق عمليا أسلوب الأريحة العربية في النجدة والبذل وحماية الدماء وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة الإنسانية ، وأكثر ما تبدوا نزعة الأمير الإنسانية في قصائده الصوفية التي أكدها في بعضها على وحدة فهو تارة هذا المسلم الزاهد ، وطورا هذا الراهب الذي يسرع إلى الكنائس ، وقد أحكم شد الزنّار إلى وسطه ومرة يلتحق بمدارس اليهود لتدريس الثورات حيث يقول عن نفسه في هذه الأبيات:

[1]- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل :توت:د:ممدوح حقي منشورات دار اليقظة العربية بيروت :1966م،ص:101

فطورا تراني مسلما أيَّ مسلم زهودا نسوكا خاضعا طالبا مدا

وطورا تراني للكنائس مسرعا وفي وسطي الزنَّار أحكمته شدًا

وطورا بمدارس اليهود مدرِّسا أقرر توراة وأبدي لهم رشدا [1]

فالنزعة الإنسانية كان لها أثر واضح وكبير في بناء شخصية الأمير الصوفية.

ب/ **انتمائه إلى آل بيت النبي :**

وهو النسب العفوي الطبيعي الذي لا إرادة للأمير به وقد تمسك مؤرخوه بهذا النسب الجسدي فأطنبوا وأفاضوا في ذكر نسبه النبوي الشريف ، فهو تارة عندهم الحسني وطورا الحسيني ومما لاشك فيه أن الأمير قد افتخر بهذا النسب النبوي الشريف وظهر فخره هذا في العديد من القصائد الفخرية والحماسية التي نظمها في المرحلتين الأولى والثانية من حياته.

كما أن الأمير يرى "أنَّ كل من كان من أهل البيت الإلهي هو من أهل البيت النبوي ...ولا ينعكس"

وهذا يعني أن الخير كل الخير في أن يجمع الإنسان بين البيتين : "النبوي والإلهي" إذ من كان من أهل البيت النبوي والإلهي فكرامة على كرامة ،ونور على نور ومن كان من أهل البيت النبوي فقط ، فهو دون من كان من أهل البيت الإلهي. " ولهذا فإن الأمير يخلص إلى نتيجة هي: "اعتبار الشارع النبي صلى الله عليه وسلم للقرابة القلبية الباطنة ، أكدا من اعتباره للقرابة الجسمية الظاهرة "، فالأمير جاهد في سبيل الوصول إلى هذا النسب الإرادي الحقيقي ، ليصبح من أهل البيت الإلهي.[2]

ج/ **تربيته الدينية الصوفية:**

[1]- الأمير عبد القادر :المواقف،ج1:ص20

[2]- فؤاد صالح السيد : الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا :ص:118

شبَّ الأمير عبد القادر في جو تربوي ديني فهو ابن الزوايا والطرق فقد نشأ نشأته الأولى في مدرسة الزاوية التي كان والده أنشئها وتلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها. كان طموحه الأكبر في شبابه أن يصبح مرابطا مثل والده الذي كان يحبه ويتحمس له تحمسا بلغ حد العبادة ، وغني عن البيان القول أن حياة الفتوة والمرابطة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الصوفيين في مجاهداتهم الصوفية ، وقد جاهد الأمير في المرحلة الثانية من حياته في سبيل الوصول إلى مرتبة الفتوة والمرابطة وما ذالك إلا نتيجة التربية الدينية و الصوفية التي تربى عليها ، وفي اتخاذ لوالده المرابط القدوة والمثال.[1]

د/ إيمانه الشديد بالقضاء والقدر:

إن إيمان الأمير بالقضاء والقدر شديد جدا ، ولعله يتابع في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإسلام فقال:"...أن تؤمن بالأقدار كلها خيرها ونشرها حلولها ومرها ". ونلمس إيمانه هذا في هذا الكتاب العهد الذي أعطاها الأمير لويس نابليون (Louis Napoleon) والذي تعهد فيه بعدم العودة إلى أرض الجزائر ، كما يعبر الأمير في رسالته التي أرسلها لصديقه الأسقف "دوبوش"، عن مغيبات القدر،عن الدور الذي رسم له مند ميلاده قائلا : "لعلك اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا ، ويبدو لي أنه كان يجب علي أن لا أكون محاربا ولو يوما واحد ، و مع ذالك فقد حملت السلاح ...ما أكثر غموض مغيبات القدر ، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا تماما عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي ، وهو الدور الذي كما تعلم جيدا، طالما تشوقت لاستئنافه والذي لم أزل أصلي إلى الله تعالى أن يسمح لي بالعودة إليه ، الآن وأنا في خاتمة حياتي الشاقة".[2]

فمن الواضح جدا أن رسالة الأمير هذه تكشف عن سر خطير من أسراره ألا وهو اعتقاده أنه حمل السلاح مكرها ، فهو لم يولد ليكون محاربا ولم تكن فكرة الإنسان المحارب تخطر على باله مطلقا

[1]- المرجع نفسه ص:120

[2]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا:ص121،122

ومع ذالك فقد حمل السلاح ، ولذا فإن الأمير قد اعتبر أن مرحلة الجهاد الحربي من حياته ، أبعدته كليا عن الدور الذي حدده له ميلاده وتربيته وميوله ، حيث كشف الأمير عن حقيقة هذا الدور إثر عودته من الحجاز ، بعد خلوته الصوفية الشهيرة ، فقال : " لقد خط لي بالميلاد والتربية والميل ، أنه دور طالما اشرأبت نفسي لاستئنافه ، وطالما صليت إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه الآن ، وقد قاربت سنوات عمري الشاقة نهايتها ".[1]

إذ لم يعد هناك من شك في أن هذا الدور ، الذي يؤمن به الأمير إيمانا كليا ، والذي حققه في خلوته الصوفية هو إيمانه بأن القضاء والقدر قد كتب له ليكون صوفيا بالميلاد والتربية والميل .

هـ/ محاربته التقليد والمقلدين:

يعتقد الأمير أن الإنسان قد يكون "محجوبا باعتقاد سبق إلى القلب ، وقت الصبا عن طريق التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بين القلب والوصول إلى الحقائق ، ويمنع أن ينكشف ، في القلب غير ما تلقاه بالتقليد ، وهذا حجاب عظيم حجب أكثر الخلق عن الوصول إلى الحق ، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية رسخت في نفوسهم وجمدت إلى قلوبهم ". ومادام الأمير قد عرف هذا الحجاب التقليدي فإنه يقول غير مقلد ولا مقيد ، وإنما يقول ما أفهمه الله تعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لذا فإنه يقول: " إذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات ، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم " ومن هنا كانت وإرادته الإلهية ومواقفه الصوفية ووقائعه "نفثات روحية ، وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب ".[2]

هذا هو الإيمان الحقيقي الذوقي الذي يرفض الإيمان العقلي الوارد عن طريق الجدل والمناظرة والمنطق ، كما إنه يرفض الإيمان التقليدي الوارد عن طريق التلقين والتعليم والاكتساب فإيمانه كما يبدو هو

[1]- المرجع نفسه:ص122

[2]- الأمير عبد القادر :المواقف:مج 1، المقدمة،ص09

الإيمان القائم على التجربة الروحية الدوقية الشخصية بحيث يوجه الأمير كلامه للمقلد قائلا :" إذا كنت مقلدا فليس كلامي معك ".إذ أنه لمعرفة طريق الحق ، على الناظر أن ينظر بعين الإنصاف ويرمي التقليد أو التعصب والإعتساف ".[1]

أما التجديد الذي عرفه الصوفيون هو تجديد الفهم الديني وتجديد الوعي والإصلاح التجديد القائم على العودة إلى جوهر الدين وأصوله وقواعده ، لا إلى ظواهره وقشوره ورسومه ومن هذه المبادئ كلها ن تلاقت وجهات النظر بين الأمير في دمه التقليد ورفضه المقلدين ، وبين الصوفيين في فهمهم الجديد للدين التليد.

و/ تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد استسلامه:

إن مرحلة الجهاد عند الأمير تأتي في مرتبة الثانية في حياته ، بحيث استنفدت الشيء الكثير من تفكيره ، فانحصر تفكيره في الأمور السياسية والعسكرية ، لا يتخطاها إلا في القليل النادر ، ولكن دخوله في معترك الحياة السياسية والعسكرية ، كان مفيدا جدا فقد أوجد له بديلا من فقدان نشاطه الأدبي والعلمي هو فتوته ومرابطته وهما حركتان من أشد الحركات ارتباطا بالتصوف ، وبانتهاء هذه المرحلة السياسية والعسكرية تبدأ مرحلة جديدة ، وهي مرحلة التصوف والعبادة ، والتجرد عن متاع الدنيا الفانية.

وبالإضافة إلى هذه الأسباب هناك سبب آخر كان له دور كبير في التصوف الأمير ألا وهو عزلته في أسره "بامبواز" في فرنسا ، بحيث تعد هذه المرحلة من أهم المراحل التاريخية لتصوف الأمير ، إذ كان يشغل نفسه في هذه العزلة " بالدعاء والتضرع وكشف الرأس حيث ترد عليه " الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر ".[2] وهكذا يمكن القول بأن الأسباب التي دفعت الأمير إلى سلوك طريق

[1]- المصدر نفسه ،مج01، الموقف173،ص384

[2]- المصدر نفسه،مج01،ص472

التصوف كانت متعددة ومتنوعة بتنوع الأحداث والوقائع التي جرت في حياة الأمير في مختلف مراحلها.

المبحث الثاني: المراحل التاريخية لتصوف الأمير:

مر تصوف الأمير بمراحل تاريخية توازي في نموها وتصاعدها المراحل التاريخية لسيرة حياته الذاتية ، وإن هذه المراحل قد نمت عنده نموا طبيعيا ، وتدرجت تدرجا سليما في تصاعدها من نقطة البداية ، بداية التوبة والورع إلى النقطة النهاية نهاية النفس الأمارة بالسوء ، حيث الشاهد واليقين ويبدو أن الغاية الأولى من هذا التقسيم التاريخي لتصوف الأمير هو بيان الظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية التي عملت في التكوين كل مرحلة من المراحل تصوفه التاريخية وتطويرها ، وهذه المراحل بدورها أرضا وقاعدة لما فوقها من المراحل . وكلما ارتقى مرحلة من هذه المراحل أثارة المرحلة التالية ، جرأته وأغرته بارتقائها ومعرفتها لتمنحه مزيدا من المعرفة الصوفية وهذه المراحل التاريخية كالتالي:[1]

المرحلة الأولى : مرحلة التلقن والتعلم والمطالعة (1222– 1246هـ/ 1807– 1830هـ) :

تمتد هذه الفترة أو المرحلة من ولادة الأمير في القيطنة إلى التاريخ نزول الفرنسيين أرض الجزائر وأهم فترة زمنية في هذه المرحلة هي فترة الرحلة المشرقية التي سافر فيها مع والده لأداء فريضة الحج ، فأتاحت له فرصة الإطلاع على الطرق الصوفية ومنها:

أ/ الطريقة النقشبندية:

[1]– فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري،ص125

أخذها في مدينة دمشق عن الإمام أبي البهاء ، ضياء الدين الشيخ خالد النقشبندي السهروردي المولود بقرية صغيرة بالقرب من بخاري سنة (718هـ/1318م) وتوفي سنة (791هـ/ 1389م). بحيث كان الأمير كثيرا ما يتردد إليه ليسمع منه علوما شتى في التوحيد والتصوف.[1]

ب/ الطريقة القادرية :

أخذها في مدينة بغداد من يد نقيب الإشراف شيخ السجادة القادرية السيد محمود الكيلاني القاديري ، وبعد عودتهما من رحلتهما المشرقية إلى أرض الوطن تولى السيد محي الدين وابنه الأمير عبد القادر نشر الطريقة القادرية حيث يومئ الأمير إلى هذه المرحلة التاريخية من مراحل تصوفه في الموقف الثالث عشر من مواقفه حين كان مغرما بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم منذ الصبا غير سالك طريقهم".[2]

المرحلة الثانية : مرحلة الفتوه والمرابطة (1246– 1264هـ / 1830–1848م):

ظهرت فتوة الأمير عبد القادر ومرابطته عندما اعتدت فرنسا على بلاده ، وأرادت استعمارها فهو لم يحارب فرنسا ولم يحارب الفرنسيين بل حارب من حمل السلاح منهم فقط فجاء الجزائر مقاتلا ومستعمرا ، بحيث أن الروح الفتوة والمرابطة والجهاد مرتبطة بمقاومة العدوان وتحرير البلاد دون الجنوح لقتال امرئ إلا من كان بيده السلاح ويرتفع عن استعمال الغدر ، أو نقض العهود وهي الميزة الأساسية التي كان يتمتع بها الأمير طوال المرحلة الثانية من مراحل حياته الصوفية أضف إلى ذالك أن "مكاتبات الأمير للشخصيات الفرنسية البارزة كالحكام والوزراء والقادة ومعاملته لأسراهم من القواد وكبار الضباط ، وحتى الجنود العاديين ما يشعر عن روح النبالة التي تعرف باسم الفتوة وهي التي عرفت في الغرب باسم الفروسية ".[3]

---

[1]- المرجع نفسه ،ص127

[2]- الأمير عبد القادر :المواقف ،مج 1،الموقف13،ص46

[3]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا ،ص129

وبما أن الإسلام جعل العبادة وعمل المعروف والدعوة إلى الخير ودفع المظالم والتكسّب من الحلال والكدح في الأرض عبادة . أي عقيدة تجمع بين العبادة النظرية أي العلم ومابين العبادة العلمية أي الجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر قال الأمير في هذا السياق:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضّب

أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا وقت الصَّبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السَّنابك والغبار الأطيب[1]

هكذا كان الأمير عبد القادر عمليا في تصوفه ، يسمو بتدينه الصحيح إلى ذروة الفتوة والمرابطة بمعناهما الإنساني النبيل ، خلافا لما صار إليه معظم الصوفيين.

المرحلة الثالثة : مرحلة التأمل والتفكير (1264–1269هـ / 1848– 1852م):

انتهى أمر الأمير إلى الأفق الروحاني المشرق ، منذ كان أسيرا في السجن ، فضاقت عليه الأرجاء ، ولكنه ظل متمسكا بوقدة الصبر تارة ووقدة الشوق للخلاص من الأسر تارة أخرى ، وقد أشار الأمير إلى هذه المرحلة التي سماها "خلوة " في الموقف الحادي عشر بعد المائتين من كتابه المشهور "بالمواقف ". حيث صور حالته النفسية التعيسة وما كان يقاسيه من الأزمات والضيق وقد اعتبر كل هذا ابتلاءا واختبارا من الله تعالى ، ليعرف مدى صبره ورضائه بقدر الله تعالى.

وهكذا يبدوا أن هذه الخلوة قد أتاحت للأمير لأول مرة في حياته التأمل الصوفي الروحاني الهادئ العميق ، فكان يقضي أوقاته مشتغلا بالذكر والدعاء"وكانت ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر ". لذا انشغل في أثناء خلوته هذه بالدعاء والتضرع وكشف الرأس ".

[1]- الديوان ط3،ص96

وتعتبر هذه المرحلة الأساسية ، لأنها بمثابة حلقة وصل مابين المرحلتين السابقتين ومابين المرحلة الرابعة والأخيرة التي سيصل فيها إلى ذروة التصوف ، وهي إلى جانب ذالك تمتاز بالإنتاج الأدبي والفكري ، حيث تعرف الأمير خلال هذه المرحلة إلى الصوفي الكبير السيد محمد الشاذلي القسنطيني .[1]

المرحلة الرابعة : مرحلة النضج والتعبير(1269–1300هـ/1853–1883م) :

تعتبر هذه المرحلة من أغنى مراحل تصوف للأمير عبد القادر من الناحية النتاج الأدبي والفكري ففي هذه المرحلة تمً له الفتح العظيم وكان ذالك في خلوته الصوفية الشهيرة إذا أقام في مكة والمدينة سنة ونصف ، مقبلا على العبادة والخلوة والتقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي ، رئيس الطريقة الشادلية فتتلمذ على يديه وشرب عنه الطريقة ولازم الرياضية ، والاجتهاد وعكف على مافي تلك الطريقة من أذكار وأوراد إلى أن ارتقى في معارج الأسرار الإلهية ". وما تمً له الارتقاء إلا في غار حراء ، لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى ووقع له الفتح النوراني وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن الكريم الآيات ومن الحديث النبوي الشريف أحاديث صحيحة". [2]وقد أشار الأمير إلى الفتح الرباني في الموقف الأول من مواقفه حين قال : "إن الله تعالى قد عودني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علما أو يفتيني في أمر استفتيته فيه ، إلا ويأخدني منيً مع بقاء الرسم ثم يلقي إليً ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن ،ثم يردني إليً ، فأرجع بالآية قرير العين، ... وقد تلقيت والمنة لله تعالى نحو النصف من القرآن بهذا الطريق ".[3]

وكتب الأمير من خلوته هذه إلى أستاذه الشيخ يصف بدايته ونهايته ، ويثني على الله بما أولاه على يده ، بقصيدة مطلعها:

---

[1]– فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا ،ص133

[2]– محمد عبد القادر الجزائري ،تحفة الزائر ،ص695

[3]– المواقف ،مج1،الموقف الأول،ص26

أمسعود جاء السَّعد والخير واليسر ووَلَّت جيوش النَّحس ليس لها ذكر[1]

وأخيرا يمكن القول أن كل هذه المراحل التاريخية لتصوف الأمير ، قد تدرجت تدرجا تصاعديا في سماء المعرفة الإلهية وبدأت في مرحلتها الأولى تلقينا وتعليما ومطالعة ، ليس فيها من أثر للتجربة الروحية الشخصية . ثم تلتها المرحلة الثانية والتي كانت فيها الفتوة والمرابطة أساس تصوفه العملي وكانت المرحلة الثالثة عبارة عن نقطة اتصال بين المرحلتين السابقتين ، أما المرحلة الرابعة والأخيرة وصل فيها الأمير إلى درجة النضج الصوفي والفكري فعبر عن رحلته الصوفية فكانت هذه التعبيرات الصوفية خاتمة لمطاف الأمير عبد القادر الصوفي.

وبعدما تحدثت عن المراحل التاريخية لتصوف الأمير وتطرقت لكل مرحلة على حدى خلال هذا المبحث الثاني ، لابد من معرفة مقامات الأمير وأحواله ومجاهداته وهذا ما سأقدمه من خلال المبحث الثالث.

المبحث الثالث : مقامات الأمير وأحواله ومجاهداته:

إن كثيرا من المقامات الأمير وأحواله كانت في غالبيتها الساحقة تطبيقا عمليا لا أثر للناحية النظرية أو القولية فيه ، وهذه ناحية على ما يبدوا لي أساسية وجوهرية في هذه القضية . فالأمير لم يعرف المقامات والأحوال ويتحدث عن كل نوع من أنواعها شأن المؤرخين والمصنفين في تاريخهم وتصانيفهم بل خبر المقامات والأحوال ، وعانى من تجربته معها معاناة المجرب ومارسها في حياته تطبيقا عمليا أكثر منه قولا نظريا ، وليس أدل على ذالك من استعراض حياة الأمير عبد القادر فهي وحدها جامعة لأنواع المقامات والأحوال والمجاهدات فأول ما سأعرضه هو مقامات الأمير.

أ/ **مقامات الأمير:**

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ج،ت،ش،ت،د:العربي دحو ص102

أول مقام سأتحدث عنه هو مقام التوبة ، حيث اعتبر الأمير أن مقام التوبة هو : "الأساس لسلوك الطريق والمتاح للوصول لمقام التحقيق فمن أعطيه أعطى الوصول ومن حرمه حرم الوصول ".[1]

أما التوكل عند الأمير فهو: " الثقة والطمأنينة لا ترك الأسباب مع الشك والاضطراب فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء ". والتوكل في رأيه غير التواكل إذ لو كان ترك السبب والحركة توكلا للَزم إذا وضع الخبز بين هذا المتوكل أن لا يتناوله ويرفعه إلى فيه فإن هذا سبب وحركة لوصول الخبز إلى بطنه".[2]

فتوكل الأمير هو مقام المتسبب ظاهريا ، والمتوكل باطنيا ، أي أن يكون ظاهره يوحي بتعلقه بالأسباب وباطنه القلبي متعلقا بخالق الأسباب ورب الأسباب لذا فقد دعا إلى إثبات الأسباب ، من حيث أثبتها الحق تعالى امتثالا للأوامر وإتباعا للحكمة ولا تعتمد عليها من حيث أنها أغيار للحق تعالى وشاهد وجه الحق فيها ، فلابد من الأسباب وجودا والغيبة عنها شهود "[3].ومن خلال هذا الموقف يبدو لنا مفهوم التصوف العملي والجهادي عند الأمير ، فليس التصوف عنده تواكلا وتكاسلا و تخاذلا ، بل التصوف عنده فتوة و مرابطة وجهاد في سبيل الله"[4]. فإن "مقام الكمال هو معطاة الأسباب مع الاعتماد على الله ". وبعد الحديث عن المقامات الأمير ، أنتقل للحديث عن أحواله.

ب/ أحوال الأمير:

أحوال الأمير متنوعة وكثيرة من أهمها وأبرزها:

1/ حال القرب:

[1]- الأمير عبد القادر :المواقف،مج1،الموقف197،ص :430

[2]- المصدر نفسه،مج1،ص369

[3]- المصدر نفسه مج2،الموقف 251،ص761

[4]- المصدر نفسه :مج2،الموقف 278،ص843

" والقرب من الحق تعالى قرب معنوي ". لا يتم ذالك إلا برفع حجاب الجهل فما بعَّدنا إلا الجهل ولا قرَّبنا إلا العلم ". وأهل الله هم القريبون من الله تعالى القرب المعنوي ، المقربون عنده... الملبون دعوته ، المستجيبون إلى طاعته ...الداعون معرفته وتوحيده على طريقة الصوفية أهل الحقيقة والسلوك والأحوال ... وقطع عقبات النفوس وطي المقامات إلى الذروة العليا ". والقرب عند الأمير قربان هما:

أ/قرب النوافل:

هو أن يشهد العابد نفسه حال العبادة ، بل وفي غيرها من سائر الأفعال والادراكات أنه بالله أي أنه يشهد الحق تعالى قدرته وسمعه وبصره وجميع قواه وأعضائه الظاهرة والباطنة ، فلا يرى فعلا له ولا لغيره ولا إدراك إلا بالله ...وهذا المقام المسمى بقرب النوافل ثابت ذوقا ووجدانا".

ب/ قرب الفرائض:

في هذا المقام يشهد العابد نفسه وقواه الباطنة وأعضائه الظاهرة ، آله الحق والحق تعالى ، المصرف لها المؤثر بها ، فيسمع بسمع العبد ويبصر ببصره ويتكلم بلسانه إلى آخر الإدراكات ". ومن الطبيعي أن "من كان قربه قرب النوافل فهو قريب ، ومن كان قربه قرب الفرائض فهو أقرب ".

وكلما تدانت الديار بين الأمير وبين المحبوب زاده هذا القرب أشجانا وأحزانا. فلا القرب يشفي ولا البعد ينسي ، وكلما ازداد قربا من الحبيب الأول زاده هذا القرب عطشا إلى معرفة الحبيب المطلق واجب الوجود.[1]

وإن قلت يوما قد تدانت ديارنا لأسلو عنهم ، زادني القرب أشجانا

فما القرب لي شاف ولا البعد نافعٌ وفي قربنا عشق ، دعاني هيمانا[1]

[1]– فؤاد السيد صالح ،الأمير عبد القادر الجزائري

2/ حال المحبـة:

لقد ملئ الأمير قلبه بمعرفة الله وهياما بمحبته ، هذه المحبة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها ونعمة عطائها ، فلا يستطيع أن يسلوها وأن يبتعد عنها . هي محبة ملكت عليه قلبه فأشعلت فيه نار الشوق ، الشوق لمعرفة الحبيب وازدياد الشوق والمحبة له حيث يقول الأمير في هذا السياق:

عن الحبِّ مالي كلما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشَّوق نيرانا ؟

لواعج لو أنَّ البحار جميعها صبين لكان الحرَّ أضعاف ما كان

فلو أنَّ ماء الأرض طرا شربته لما نالني ريٌّ ولازلت ضمآنا[2]

فالمحبة عند الأمير عبد القادر درجات ومراتب وأعلى مراتبها محبة الله للمجاهدين الذين جاهدوا الجهاد الظاهر والجهاد الباطن في سبيل معرفة الحبيب الأول واجب الوجود ". فأي منقبة أعظم ومكرمة أفخم من محبة الله تعالى للمجاهدين وهي محبة خاصة بالمجاهدين لها آثار في الدنيا والآخرة كما أن محبة المجاهدين له تعالى محبة خاصة زائدة على محبة المؤمن غير المجاهد لظهور آثار المحبة من الجانبين ".

إذ ذاك يستوي عنده "شهيد المعترك وشهيد المحبة اللذان يستتر عنهما الوجود المجازي والحياة الفانية ويحصلان على الوجود الحقيقي والحياة الباقية بخلاف غيرهما من الأموات ".[3]

3- حال المشاهدة:

إن المؤمن مهما عظم إيمانه ، إلا تنازعه نفسه الأمَّارة بالسوء وتطلب تكييف ما آمن به أو تشبيهه أحيانا ، ولذالك لايطمئن الأمير " الاطمئنان إلا بالشهود ". وهذه الحالة هي النوع الثالث من أنواع

---

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر :ج-ت- شوت- د:العربي دحو،ص116

[2]- المرجع نفسه:ص 116

[3]- الأمير عبد القادر :المواقف ،مج،الموقف186،ص409،410

الهدى ، التي أطلق عليها اسم " الأعظم هدى "، بحيث لاينال هذه المرتبة ، "إلا الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان".[1]

ج/ مجاهدات الأمير:

تعد المجاهدة شرط أساسي من شروط السلوك في طريق التصوف ، حيث لا يحصل لسَّالك شيء من نعمة الطريق إلا بالمجاهدة ، وأكبر دليل على ذالك هو القرآن الكريم صريح العبارة في هذا الموضوع ، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:"والذِّين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإنَّ الله لمع المحسنين " سورة العنكبوت الآية : 69/29

1/ علم المعاملة عند الأمير:

إن علم المعاملة هو:" علم طريق الآخرة ... والعلم بكيفية تطهير القلب من الخبائث والكدرات بالكف عن الشهوات وإخماد القوى البشرية بقطع جميع العلائق البدنية والإقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم".[2]

ويشتمل علم المعاملة على مجاهدتي : التقوى والإستقامة ، فعلم المعاملة عند الأمير إنه لا يسمى الأشياء بأسمائها التقليدية المتداولة ، بل يحاول أن يجد لها أسماء جديدة تناسب الحالة الروحية التي عايشها واختبرها ، وهذا يعني أن مجاهدتي التقوى والإستقامة لا تأخداني عنده التسمية بل سميتا عنده بإسم جديد إذ اعتبرهما رتبة ثانية (أي وسطى) من رتب الهدى حين قال: " إن الهدي أنواع والموصوفون بالهدى أنواع :" فمهتد ، وأهدى وأعظم هدى ".

[1]- المصدر نفسه: ص258

[2]- ابن خلدون :شفاء السائل لتهذيب المسائل ،نشره وعلق عليه الأب غانيطوس عبده خليفة اليسوعي ،المطبعة الكاثوليكية،بيروت ص:48

كما أن الأمير يؤكد في كثير من مواقفه ويكرر هذا بالتأكيد مرارا كثيرة أن: " أهل الله هؤلاء الذين تابعوا الاستقامة والمشي على الكتاب والسنة ". وأن اتباع السنة قولا وعملا وحالا وأعظم جهادا للنفس . فلا أشق على النفس واتعب لها من امتثال الأوامر ظاهرا وباطنا واجتناب النواهي كذالك ومخالفتها عند طلب الشهوات غير الضرورية ".[1] حيث عبر الأمير عن بداية مجاهدته هذه في الموقف الثالث والثمانون حين قال: "ومن بعض نعم الله علي : أنني منذ رحمني الله تعالى بمعرفة نفسي،

ما كان

الخطاب لي والإلقاء علي ، إلا بالقرآن الكريم العظيم ".[2]ويكثر الأمير في مجاهدة علم المعاملة من مطالعة كتب الأنبياء وأخبارهم والإطلاع على سيرهم وأحوالهم .

وهكذا تكتمل صورة هذه المجاهدة عند الأمير اكتمالا إلا طبيعيا لا نقص فيه ، ولالتواء بل فيه تدرج طبيعي من رتبة إلى رتبة ، أي من رتبة أرضية إلى رتبة سماوية.

ولكن رغم كل هذا فإن الأمير لم يكتفي بهذه الرتبة من المجاهدة ولم يقنع بما وصل إليه في مجاهداته الروحية ، بل تابع سيرة للوصول إلى ذروة الرياضة الروحية حيث النعمة الكبرى والغاية العظمى ، وكل هذا سيظهر في طيات مجاهدة الأمير الثانية ألا وهي : مجاهدة علم المكاشفة.

2/ علم المكاشفة عند الأمير :

يقول الأمير عبد القادر " إن وجود معشوقة غير مرموقة الأهوية إليها جانحة والقلوب بحبها طافحة والأبصار إلى رؤيتها طامحة يطير الناس إليها كل مطار ويرتكبون الأخطار ... ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد.

[1]- الأمير عبد القادر :المواقف،مج1، الموقف159،ص358

[2]- المصدر نفسه ،مج 1،الموقف 83،ص159

وبهذه العبارة أطلعنا الأمير على غاية الرحلة الصوفية ، فإذا هي هذه المعشوقة التي تهواها القلوب وتطمح إلى رؤيتها الأبصار ، ويتسارع إليها الناس من كل حدب وصوب ، فقد كثر السالكون وقلَّ الواصلون الذين صبروا في مجاهداتهم الصوفية من التقوى إلى الاستقامة فإلى الكشف والإطلاع . وقد أطلعنا الأمير أيضا على مكاشفته ووصوله وعلى درجة منزلية بين الصوفيون بقوله :" فاعتمدت على الواحد الأحد لألوي على أحد فمررت في طريقي على فرق من فريقي: فرأيتهم بين سادم باهت لا هو بالحاصل ولا الفائت و بين حاير واقف التبست عليه المواقف وبين غريق في لجج تلك البحار وتائه في تلك المغاور والقفار .[1]

وهكذا فإن الأمير كان شديد التحفظ من ناحية الخوض في المكاشفات شديد التكتَّم والتقيَّة إذ " لولا لجام الشرع لقلت ما لم يقل".

ولكن لجام الشرع أحكم حكمة لذاك تراني حائما ومهموما[2]

وهكذا ينهي الأمير جولته الروحية هذه بالدعوة إلى" محبة هذه الطائفة العلية والتصديق لكلامهم. فإن محبتهم عنوان السعادة ، والإعراض عنهم عنوان الشقاوة فإياك يا أخي أن يصدك صاد أو يعارضك معارض ".[3]

كما طلب الأمير عبد القادر في مجاهداته الثلاث : مجاهدة التقوى والورع ، ومجاهدة الاستقامة، ومجاهدة الكشف والإطلاع أن تكون "الوسيلة : هو الشيخ الكامل بالنسبة للعارف بالطريق وبالعلل العائقة والأمراض المانعة من الوصول إلى العلم بالله تعالى لابد من الوسيلة التي لا تغني عنها الكتب وذالك عند ورود الواردات ، وبوراق التجليات والواقعات ليبين للمريد المقبول من المردود والصحيح من السقيم ، وإما بداية السلوك فيكتفي بالكتب المصنفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة ".

---

[1]- الأمير عبد القادر :المواقف،مج1،مقدمة المؤلف،ص12

[2]- المصدر نفسه ،مج01،الموقف171،ص:38

[3]- المصدر نفسه ،مج 02،الموقف 231،ص520

أما الرؤية المعرفية عند الأمير فقد تميزت بالاتزان والمنطق رغم ترجيحها للمعطى القلبي في المجال الروحيات ، فقد قامت قناعة الأمير على أن الشريعة هي سقف الحقائق التي يمكن للعبد أن يطمئن إليها وما دامت روح هذه العقيدة قد سكنت عقلا سليما ، فلا جرم ستظل نظرة الانسجام تطبع فكر ورؤى العبد.[1]

ولما كانت طبيعة الخطاب الإلهي تمت إلى الغيب وإلى الملكوت بصلة عضوية فلا مناص للمتدبر لفحوى ذالك الخطاب أن يستند على قلبه قبل عقله في استكشاف الكوامن فالمجال النظري الرياضي غير المجال النظري الميتافيزيقي، ولكل منهما عدته وآلته الأنسب لاستبار أبعاده ، وكذالك هو شأن المحدود و ألا محدود ، إذ مفردات هندسة هذا هي غير مفردات هندسة الآخر ، ولا أداة المقايسة فيهما واحدة.

كما أن الخطة المعرفية الروحية التي اتبعها الأمير عبد القادر لم تستنسخ تصورات أهل الباطل ولم تعتمد نظام أهل العرفان كما رسخ في تعاليمهم وتأليفهم ، بل لقد ظل الصفاء العقلي والواقعية الفكرية وجهته سواء في منهج تأوليه الخطابي أو في تدليلاته المنطقية أو معايشاته للأحوال ، فقد كان متأملا أكثر منه متخيلا.

وهكذا فإن معرفة الأمير هي معرفة إخبارية وليست إنشائية ، ولاشك أن روح الأمير لم يكن ارتباطها بثقافة الحال طارئا أو مستجدا ، ذالك لأن الأمير عاش دائما وهو يعمل استعدادا روحانيا كانت تنشئته في الزاوية من العوامل التي كرسته في نفسه ، ثم إنه قد عاش تجربة الجهاد على حال من الاحتساب القلبي كان لها الفضل الكبير في صون مقاوماته المعنوية وتعميق اعتصاميته وهو ما كفل له أن يتجاوز الضربات وأن يتحمل الطعنات وأن يرابط ويصابر ويتواصل مع القدر بروح من الإضغان و الشيجة[2].

[1]- عشراتي سليمان : الأمير عبد القادر المفكر:دار الغرب للنشر والتوزيع ،طبعة2002،ص335

[2]- المرجع نفسه ص335

أما أهم المشايخ الذين كان لهم أشدَّ الأثر في حياة الأمير الصوفية ، فقد تأثر أولا بسيد الخلق محمد ابن عبد الله صلوات الله و سلامه عليه ، حيث يظهر تأثره به واضحا في كل أثره الشعرية والنثرية . فكلها تدعو لإتباع السنة و السير على هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم و تبين أيضا أن الأمير قد تأثر كثيرا بشيخه الثاني:الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ومن الصدف النادرة أن حياة الأمير وحياة شيخه بن عربي متشابهة إلى درجة كبيرة من الناحية التاريخية,و الجغرافية و الفكرية و النفسية ، أما موقف الأمير من شيخه الثالث:محمد الفاسي هو موقف الخضوع و التذلل وموقف المبالغة و الغلو ، موقف من اعتبر أن الكمال في شيخه و مرشده الذي له مطلق الحكم و التصريف و النهي و الأمر.[1]

وبعد كل هذا لابد من الإشارة إلى الرموز الصوفية التي وظفها الأمير في أشعاره المختلفة ، بحيث يبدو أن السبب في نشأة الشعر الرَّمزي عند الصوفيين هو تلك الحملة القوية التي شنَّها الفقهاء على المتصوفة ، فأخذ كل فريق يناوئ الأخر ، ويشنع عليه فاضطر الصوفية إلى الرمز و التعمية في الكلامهم.

د–الرموز الصوفية عند الأمير:

إن من أبرز الرموز و أكثرها وضوحا و ظهورا في قصائد الأمير الصوفية ، هناك رمزين هما:

الخمرة و الحبيب.

1–الخمرة:

لم يفرض الأمير للخمرة الحسية المادية قصائد و مقطوعات في ديوانه ولم يذكرها بتاتا، وإنما ذكر الخمرة الإلهية التي وصفها وصفا يكاد يكون شبيها بوصف ابن الفارض لخمرته التي اعتبرها هذا الأخير رمزا للمعرفة الإلهية ، أو لمعرفة الحبيب الأزلي أي واجب المطلق حيث يقول:

[1]– فؤاد صالح السيد ،الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا،ص274

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم.

فإن ذكرت في الحيِّ أصبح أهله نشاوى ولا عار عليهم ولا إثم.

على نفسه فلبيك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم.[1]

وقصيدة الأمير الصوفية التي ضمنها ذكر الخمرة ، تكاد تكون صورة طبق الأصل لقصيدة ابن الفارض ولكن الفرق الوحيد بينهما هو أن موضوع قصيدة ابن الفارض الخمرة الإلهية فقط ، أما قصيدة الأمير فيكون الموضوع الخمري جزءا منها.

أ/ خصائص رمزه الخمري(من حيث مواضيعه):

تناول الأمير الخمرة الإلهية فذكر قدمها الذي يعود إلى ما قبل كسرى، وهي خمرة لا تسكر، وتحدث عن أثرها،وبأنها هي العلم فهي الغنيمة الكبرى ولذلك هاجر الأمير إليها و بلغ غايته.

الخمرة المعَّتقة:

وتتصف هذه الخمرة بدمها ، فهي معتقة من قبل كسرى ومصونة عن كل ما يسيء إليها ويدنسها ، فلا ضمهادن ، ولاعابهازق ولم تكن عرضة للتجارة.

معتقة من قبل كسرى مصونة وما ضمها دن ولا نالها عصر

وإلا شانها زق ولا سار سائر بأجمالها كلا و لانالها تجر [2]

_الخمرة التي لا تسكر:

[1]- ابن الفارض :جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض ،عني به أمين خوري ،طبعة ثانية ،المطبعة الأدبية بيروت .ص148-152

[2] - ديوان الشاعر الأمير عبد القادر :ج،ت،ش وت،د:العربي دحو،ص 111

إن خمرة الأمير كخمرة الجنة التي نفى القرآن عنها الإسكار فليس لها صفات الخمرة الدنيوية،فلا يصاب شاربها بالسكر ولا بخفة العقل و الجهل والحمق و هي خمرة صافية.

ويشرب كاسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر

فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة وليس لها برد و ليس لها حر [1]

_أثر الخمرة:

ويظهر تأثير هذه الخمرة في تخلي الملوك عن ممالكهم طوعا لا كرها.و هؤلاء الملوك كندمان ابن الفارض الذين حين نضروا الختم انائها:

فلو نظر الأملاك ختم إنائها تخلوا عن الأملاك طوعا ولا قهر

و لو شمت الأعلام في الدرس ريحها لما طاش عن صوب الصواب لها فكر[2]

_كما أن الخمر عند الأمير هي العلم كل العلم.ذلك أن نسبة هذه الخمر إلى العلم كنسبة النقطة إلى محيط الدائرة فهي مركز تدور حوله وتتكئ عليه كل العلوم:

هي العلم كل العلم و المركز الذي به كل علم كل حين له دور.

-ويحلو لشاعرنا الأمير عقد هذه المقارنة بين عالم أي صوفي خبير بشرب هذه الخمرة ،وبين جاهل كفه من كأسها صفر،فالغيمة الكبرى في هذه الحياة أن ينال المرء منها و الغبن الكبير في جهله لها :

فلا عالم إلا خبير بشربها ولا جاهل إلا جهول بها غر.

ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئه سوى رجل عن نيلها حظه نزر

[1]- المرجع نفسه ص111

[2] - المرجع نفسه ص111

ولا خسرى في الدنيا ولا هو خاسر سوى واله و الكف من كأسها صفر[1]

-الهجرة إلى الخمر:

تبدأ هجرة الأمير في سبيل الحصول على هذه الخمر التي لم يكتف وتسميتها،بل ذاق معانتها و مجاهدتها وقطع من أجلها مراحل الطريق الروحية مرحلة بمرحلة،كي يصل إلى غايته،فما هي هذه المعانات والمجاهدات التي اجتازها الأمير في هجرته هذه،لقد جاهد في سبيل كتم نزواته ورغباته فهان كل شيء في نظره ولم تعد الملذات الدنيوية و الأهواء العاطفية كلها تستحق في نظره أدنى درجة الاهتمام ،فلا الأوطان والأهل ولا العباد الحسان ،ولا الأحباب والصحب،ولا العوادي و العدا ولا القفر والبحار بقادرة على ثني الأمير عن هجرته الروحية في سبيل خمرته الصوفية:

و في شمها-حقا- بذلنا نفوسنا فهان علينا كل شيء له قدر

وملنا عن الأوطان والأهل جملة فلا قاصرات الطرف تثنى ولا القصر

ولاعن أصحاب الذوائب من غدت ملاعبهم مني:الترائب والنحر

وبعد هذه الهجرة الروحية الطويلة الشاقة التي ذاق فيها الأمير مرارة الصبر،وكظم أهواء النفس عن ملذات الحياة ،وصل الأمير وشرب وعرف من الأسرار ما يعجز الملوك عن معرفته،لأن ما يملكه الملوك من متع الدنيا المادية،لا يعد شيئا بالنظر إلى ما أصبح الأمير يملكه من معرفة الأسرار العلوية ،أي نعمة المعرفة التي هي كل المعارف والنعم ،أنها نعمة معرفة الحبيب.[2]

و قد أنعم الوهاب فضلا بشربها فلله حمد دائم وله الشكر

فقل لملوك الأرض :أنتم وشأنكم فقسمتكم ظئري وقسمتنا كثر

[1]- المرجع نفسه ص111

[2]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا،ص232

خذ الدنيا والأخرى أبغيها معا وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر[1]

2- الحبيب والمحبة:

إذا كانت الخمرة عند الصوفيين رمزا للمعرفة الإلهية ،أي معرفة الحبيب واجب الوجود المطلق فإن المحبة أي الغزل الصوفي غزل إلهي لواجب الوجود المطلق أي الحق.

وقد تطرق الأمير إلى موضوع الغزل الإلهي في بعض قصائده الصوفية ،نذكر منها قصيدته "الحائية" التي تعد نسخة لقصيدة السهرودي السالفة الذكر ،فحرف الروي هو(الحاء) هو نفسه في كلا القصيدتين ،والمعاني متشابهة عند الرجلين حتى ليضن القارئ إن القصيدتين من نظم شاعر واحد ولبأس من التعرض لقصيدة الأمير "الحائية" بالدراسة والتحليل ،لنرى مدى مقارنة ،والتوافق بين كلا الشاعرين وفي ذلك دليل على مدى تأثر شاعرنا الأمير بالسهروردي في موضوع العشق الإلهي.[2]

أ – خصائص رمزه الغزلي (من حيث مواضعه)

تحدث الأمير في "الحائية " عن وصال الحبيب ورؤيته،ثم مزج بين موضوعي :الخمر والمحبة ،ووصف ليالي اللقاء متنقلا إلى حديثه عن التوجه الكلي للحبيب،مستطردا إلى الحديث عن الصبر المحبين وأخيرا أبدى الأمير موقفه من أهل العشق الإلهي.

-وصال الحبيب :

لقد وصل الأمير في مجاهداته إلى مرحلة التحقيق والمشاهدة التي تؤمن له الإيمان الذوقي التحقيقي فعرف وصال الحبيب الأول ،هذا الوصال الذي اعتبره الأمير عيدا وأفراحا وهذا اللقاء هو بالنسبة لشاعرنا بمنزلة الروح والروح والراح.

---

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ،ج-ت-ش وت،د:العربي دحو،ص:113

[2]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا،ص:232،233

أوقات وصلكم عيد وأفراح يا من هو الروح لي والروح والراح

يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحققت في محيا الحسن ترتاح[1]

وحقق هذا الوصال للأمير لذة النظر فلم ينظر الأمير إلى شيء في هذا الوجود إلا وقد لاح منه أحباب قلبها،فصورة محبوبة مبثوثة في كل الكائنات ،ولقد نظر شاعرنا إلى حسن الذي لاشيء يشبهه:

فما نظرت إلى شيء بدا أبدا إلا واجبات قلبي دونه لاحوا

ويخلو الأمير إلى حبيبه وقد أدررت الأباريق والأقداح المملوءة من الخمر المعرفة الإلهية فكلما ازداد شربا من هذه الخمر ازداد معرفة بهذا الحبيب وكلما ازداد معرفة ازداد محبة له.

أود طول الليالي أن خلوت بهم وقد أديرت أباريق وأقداح

-أكثر ما يروع الأمير المتصوف الصباح في ضوئه ونوره ،لأنه يحمل في طياته بدء الفراق بين الأمير وبين حبيبه فهذا الليل بدا مشرقا من حسن طلعة حبيبه ولذا فإن أيام الأمير كلها أنوار وأفراح:[2]

يرو عني الصبح إن لاحت طلائعه يا ليته لم يكن ضوء وإصباح

ليلي بدا مشرقا من حسن طلعتهم وكل ذا الدهر أنوار وأفراح

- **التوجه الكلي :**

ويبدو التوجه الكلي عند الأمير في حبه الإلهي هذا حين تخلى عن جميع ندمانه من ندمان الأنس ماعدا نديما واحد وهو النديم الذي عنده أخبار الحبيب ويعمل جاهدا على نشر هذه الأخبار وإيضاحها فليس للكسب المادي ،أو تجارة والأرباح قيمة في نظر الأمير فقد تخلى عن هذه الأشياء جميعها،وإنما الكسب الروحي عند الأمير في مجالسة الحبيب وهي الغاية الكبرى والنعمة العظمى حيث غاية الغايات.

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ج- ت- ش وت ،د:العربي دحو ،ص :116

[2]- فؤاد صالح السيد :الأمير عبد القادر الجزائري

فما نديمي بحان الأنس غير فتى له لأخبارهم نشر وإيضاح

لا كسب لي بل ولا شغل ولا عمل ففي حديثهم تجر وأرباح

ماجنة الخلد إلا في مجالسهم فيها ثمار وأطيار وأرواح[1]

- **صبر المحبين:**

ويعجب الأمير من صبر المحبين على أسرار المحبة الإلهية التي اؤتمنوا عليها فحاول أن يكتم هذا الهوى ولكن أن له ما أراد لأن الهوى فضّاح وتظهر علامات المحبة عند المحب.

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني صبر المحبين ماناحو ولاباحو

أريد كتم الهوى حينا فيمنعني تهتكي كيف لا والحب فضاح[2]

ويحزن الأمير ويأسى لأهل العشق الإلهي حظهم الهلاك سواء كتموا محبتهم أو صرحوا بها :

ويح أهل العشق هذا حظهم هلكي مهما كتموا أوصرحوا

وأخيرا يمكن القول أن مما يتصل بخصيصة التواضع لدى الأمير هذا الحب الصوفي،الذي يرقى بأصحابه عن الحب المادي الدنيوي،إنه حب في الله جل شأنه في سبيل بلوغ مرضاة الله ،فصدود الحبيب ... وجفوته،وتقلب المحب على جنيبيه دون أن ينام ...وأرقام بسبب حشو فراشه بالهم والضنى....وفزعه ليلا ينادي حبيبه عله يتعطف ويرفق بحاله،فينقذه من هيام قلبه واحتراق صدره ...ثم يأسه من الوصل بأن الليل لن يعقبه نهار...كل أولئك من التعابير التي يرددها الصوفيون إمعنا في تعلقهم بمن يحبون ،ولكنهم إذا تقطعت بهم الأسباب بين الخلق ،يبقون على صلة قوية تربطهم بالخالق-سبحانه- وهكذا نرى الأمير يلجأ إلى مغيث المستغيثين ليكشف عنه ضره الذي لحق به من بعد أحبابه.[3]

[1]- ديوان الشاعر عبد القادر الجزائري :ص:116

[2]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج،ت-شوت،د:العربي دحو،ص:115

[3]- الثقافة عدد خاص بالذكرى المؤوية لوفاة الأمير عبد القادر:مجلة تصدرها وزارة الثقافة الجزائر السنة الثالثة عشر عدد75 ،ص:330

ونلمس في شعر الأمير شيوع الرمزية الصوفية فرجال الصوفية يرمزون بالحبيب إلى الذات الإلهية في غالب الأحيان وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا أخرى ولكن الأمير كثيرا من نجده يرمز بالحبيب إلى أحد شيوخه يقينا منه بأنه واحد من أولياء الصالحين بما تحلى به من صفات المؤمنين الذين اقتدوا بسنة رسوله الكريم،مستندا إلى قوله الحق تعالى: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون " وقد استهدف الأمير الانتفاع بعمل الشيخ وبخلقه وصلا إلى الفوز بمرضاة ربي العالمين.[1]

وبذلك تستكمل حلقة الحب الصوفي باتصال العبد بربه وإخلاص العبادة له دون سواه،فصلة العبد مع ربه ومقدار درجة التقوى والخشوعية التي تلازمه في تواصله مع مولاه لاسيما في تأدية العبادات وفي تلاوة القرآن تحدد نظرته إلى خالقه فمن يتلو كتاب الله تلاوة قرآنية ،كان الوجود بالنسبة إليه وحدة ومن قرأ قراءة فرقانية كان الشهود بالنسبة إليه وحدة.

[1]- المرجع نفسه:ص330

الفصل الثالث

تحليل بعض قصائد الأمير

الصوفية

أنا المطلق

أنا المنطلق لا تطلبوا الدهر لي قيدا ومالي من حد فلا تبغوا لي حدا

ومالي من كيف فيضبطني لكم ولا صورة لا أعدوا منها ولا بدا

ومالي شأن يبقى أنين ثابت وإن شؤوني لا يحاط بها عدا

ومالي من مثل ومالي من ضد فلا تطلبوا مثلا ولا تبغوا لي ضدا

ولا تنظروا غيري من كل صورة فلا تنظروا عمرا ولا تنظروا زيدا

ولا تطلبوا غيري فما هو كائن سوى خيالات تحسبون لها وجدا

وما هي إلا سترة قد نصبتها لأبله عقب صور صبحت عينه رمدا

ألا فانظروا إلى الحبيب وفكروا فهل غيره ماصغر صورته زيدا

فلا كائن غلا أنا به ظاهر ولا كائن يكون لي أبدا قيدا

ولا باطن إلا أنا ذاك باطن ولا ظاهر غيري فلا أقبل الجحدا[1]

في هذه القصيدة يصطنع السياق الشعري لسان الخالق ، وتلك حال يمكن تفسيرها بأكثر من وجه فهي إما استلها مات واعية تتمثل صورا من القول والمخاطبة التي يفترض أنها تصدر على لسان الخالق البارئ.

كما يمكننا القول أن ذات الشاعر في مثل هذه المخاطبات المتعالية التي لا يفهمها أي كان(أي الظاهرة الغموض في شعر المتصوفة لأنهم يملكون معجما ذو دلالات خاصة بهم ، كما هو عالم

1-ديوان الشاعر عبد القادر :ج- ت- ش وت، د :العربي دحو ،ص11 9

التصوف محيط مغلق فإن الألفاظ التي يعبرون بها تزيد من أحكام هذا المحيط المغلق) .تسعى لأن تكون على درجة طباقية من الميتافيزيقا لا سيما إذا كان الشاعر يقول بوحدة الوجود ، والوحدة منظر يحل عن أن يدركه المخلوق ، فليس للمخلوق فيه راحة ، بوجه من الوجوه ،وفي هذا المشهد يسلب الحق تعالى ، العالم ما ألبسهم من حلل الدعاوى الكاذبة ، المشعرة بوجود سواه ، أما الوجوه فهو تحلي الحق تعالى في هذا المنظر بأعيان المظاهر ، فيكون عين الظاهر وعين المظهر ، وهذا أول مجالي الصفة الواحدية ، لا يشهد صاحب هذا المنظر ، لشيء في العالم وجوما البتة ، فلا يبقى للحادثات عنده أثر.[1]

والمتكلم في القصيدة هو الشاعر : كقوله في هذه البيت:

لا تنظروا غيري من كل صورة فلا تنظروا عمرا ولا تنظروا زيدا

فالصورة التي قصدها الشاعر هو ظله على صورته وهو على الصورة ن فهو ظل قام الدليل على ان التحريك للحق لا له كذالك التحريك له لا لظل غير أنه يعترض فلم يعرف قدره وظله لا يعترض فيا من هو ظله أعلم بقدره منه متى يفلح؟

أما لفظة عمر وزيد ، فهي من الأسماء التي تتكرر في شعر الأمير كقوله في إحدى مقطوعاته " فما عمر وكم عمر ولا زيد " وهذا كله بقصد الرمز لا الحقيقة والشاعر في الآن الكلية كقوله :

فلا كائن إلا أنا به ظاهر ولا كائن يكون لي أبدا قيدا[2]

ومن لفظه ظاهر التي وضفها شاعرنا أنها في المفهوم الصوفي هي إن نعمة الوحي وحدها تتيح للنفس القيام بهذا السفر من الظاهر الباطن ، من محيط الدائرة إلى محورها ، ومن مبنى الكون إلى معناه وهذا السفر هو نفسه "السعي الصوفي " ولما كانت النفس ذات صلة وثيقة بالنظام الكوني كان هذا السفر

[1]- موسوعة الطرق الصوفية – ت – د و ت، د: محمد بن بريكة البوزيدي الحسني الجزء الثاني دار الحكمة – الجزائر : طبعة خاصة ،ص351-356

[1] – ديوان الشاعر الأمير عبد القادر ،ص120.

في وقت واحد نفوذا على صميم النفس ورحيلا إلى الموطن القائم وراء النظام الكوني وهذان المكانان هما بواقع الأمير مكان واحد وهما مقر الحضور الإلهي الذي هو بكامله "نحن" وبجملته "سوانا " في آن واحد والبقاء في نطاق الظاهر وحده يعد خيانة لطبيعة الإنسان ذاته لأن مبرر وجوده إنما هو " السفر " من " الظاهر " إلى " الباطن " ومن محيط دائرة الوجود إلى مركزها الذي لا يرتقي إليه الإدراك ، ورجوع الخليفة بذالك إلى الأصل الذي تحدرت منه.

وإلى هذا تستفيض القصيدة كما هو جلي في الأبيات حقيقة وحدة الوجود:

فلا كائن إلا أنا به ظاهر ولا كائن يكون لي أبدا قيدا

ولا باطن إلا أنا ذاك باطن ولا ظاهر غيري فلا لأقبل الجحدا

فقل عالم وقل غله وقل أنا وقل أنت وهو لست أخشى به ردا

تعددت الأسماء وإني لواحد ألافا عبدوني مطلقا نزها فردا

أنا قيس عامر وليل محقق محبا ومحبوبا وبينهما ودا

أنا العابد والمعبود في كل صورة فكنت أنا ربا كنت أنا عبدا

فطورا تراني مسلما أي مسلم زهودا نسوكا خاضعا طالبا مدا[1]

إن لفظ الباطن في مفهوم الصوفية : أن النزاع الباطن هو عين الاعتراض في الظاهر وهو حرام على المريدين ، وكل مريد اعتراض بباطنه فهو مسخرة للشيطان ، ومن شرط المريد أن يكون باطنه بيت الاحتراق على الدوام .... وكذالك المريد متى لم يجد لوعة الوجد وحرقة الطلب والشوق إلى المقصود لا يتولد فيه من فيض أستاذه حرارة يظهر منها إنتاج فهو مثل الوقود البارد لا يؤثر فيه القبس إلا دخانا كالدعاوى والرعونات الحاصلة للنفس الداخلية بين القوم بغير حق.

[1]- المرجع نفسه ص 120

والمحبوب من الحب أو المحبة والمراد منها هو وجدانها في القلب حتى تكون دليلا على كمال حال الإيمان لا لتكليف لها يحمل القلب عليها ، فالحب هو حال من الأحوال الصوفية بل هو أساس الأحوال ، وقد اعتبرت بالنسبة للأحوال كالتوبة بالنسبة للمقامات .

ـما الظاهر الباطن يقصد به : لك ظاهر إلى الخلق ولك باطن إلى الحق فمتى ظهر الحق على ظاهرك سقطت حرمتك عند الخلق وفيها سعادتك لأنهم فرغوك إليك[1].

والأمير عبد القادر وضف كلمة عالم والتي أراد بها أن الله خلقه بجسم سوي وحسن خلقه وأكمل نشأته الظلمانية ، ثم نفخ فيه روحا من روحه فانفتح رتفه واستنار وجوده وانطردت ظلمته فنطق بالثناء والحمد فنحن الخلفاء فلنا دارت الأفلاك وبنا ترلت الروحانيات والأملاك.

أما العبودية التي يتحدث عنها شاعرنا فهي أن يرجع العبد من الحق ، إلى الخلق بالحق في هذا المشهد ، وقد تمكن من التصرف بحقائق مقتضيات الأسماء والصفات فيقف بعد الكشف ، دون الحجاب ، وما كل من رجع من الحق إلى الخلق ، يرجع من هذا المقام.

فالملاحظ من هذا السياق البوحي الذي وضفه الأمير في قصيدته يتخذ منحى تعليميا إذ يجنح إلى التقريرية والمنطق والتعيين الحرفي في الأغلب ن متجنبا المجازية والصورة بمعناهما الفني الإيحائي ، فالموقف الشعري في القصائد الوجودية يتبع أسلوب التقرير ذالك لأنه يتقصد التعليمية ، وهو ما تؤكده السياقات، من قبيل قوله:

أنا عين كل شيء في الحس والمعنى ولا شيء عيني فاحذر العكس والطردا [2]

فالفكرة التي تلح على الشاعر هنا فكرة اقتضت منه التفسير والتنبيه ، وهو ما أنجزته صيغة التحذير" فاحذر العكس و الطردا".

[1] – موسوعة الطرق الصوفية :ت:دوت،د: محمد بن بريكة ،ج2،ص33

[2] – ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج،ت، ش وت، د:العربي دحو ،ص:120

وأشير هنا أن الأمير كان يدرك أنه يجتاز برؤيته الدينية والفكرية على شيء من الدقة ، إذ أن الدين عند الأمير واعتبارا المستوى الفهم والتعمق الذي بلغه ، كان يعني الجهد والاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد وكل ذالك يجعله في موقف حساس في نظر العامة والمقلدين لذا كان يحرص على أن يجلي الجوانب الغامضة من مذهبه الروحي لا سيما تلك التي كان يستشعر جدتها أو قابليتها للتأويل المغلوط من هنا رأيناه يصر على التنبيه إلى أن الوحدة التي يقرها لا تعني حلولا ولا ما يفيد معنى الحلولية ، وسنجد هذا الإصرار على نفي الحلول عن مشربه الروحي يتكرر في كثير من مواطن كتابه الفكري والعقيدي "المواقف".[1]

ورغم أن الأفكار هذه القصيدة " أنا مطلق" تبدو متناقضة حينا ، ورمزية بعيدة المعنى حينا آخر وربما السبب يعود إلى الشعور المخلوق بالنقص حين ينظر إلى كمال الخالق جل شأنه ، لأن أشعار الأمير في الأغلب خاضت في المجال الروح والغيب ، وابتعدت عن نطاق التوسل واستنزال اللطائف ، تلك الحال التي رأيناها تغلب عليه في عدد من نصوصه وفي ذالك دليل على صلابته عود واستحكام قوة أتاحت له أن يحلق في فضاء المغامرة .

ومن جهة أخرى يمكن أن نقرأ في معاني القصيدة المضمرة تجربة النضال التي كابدها الأمير هو وشعبه يطاولون العدو ويزاحمونه صدا له عن الحمى في قوله:

ليالي صدود و انقطاع وخطوة وهجران السادات فلا ذكر الهجر

فأيامها أضحت قتاما ودجنة ليالي لا نجم يضيء ولا بدر

فراشي فيه حشوه الهم والضنى فلا التذلي جنب ولا التذلي ظهر

[1]- عشراتي سليمان :الأمير عبد القادر الشاعر (مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة الما بعد) ،دار القدس العربي- دار أطفالنا:الطبعة الأولى 2011،ص:208

ليالي أنادي والفؤاد متيم ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر[1]

ومن الواضح أن مساحة الدلالة في هذا السياق تتسع لإيعاز بالمكابدة والمشقة الجهادية كما عاناها الأمير في أيام نضاله ضد العدو ، ولما كانت تجربة الجهاد هي أيضا من بعض وجوهها تجربة عروج ، مددها الإيمان بالله والأمل في عونه ، فقد تشابهت حالها مع الحال السلوكية التي أفضح عنها لسان القصيدة ، وهو ما شرع باب الخطاب وهيأه لأن يتسع الأكثر من قراءة.

كما اتسمت مواقف الالتفات إلى الذات – ذات الشاعر– بالتجرد فالشاعر في مواطن الانصهار ذاك كان يتقصد الفناء و تحطيم ما كان يعلق النفس من غلظة الأنانية ، لذا ألفناه يتعهد بواعث العزة في نفسه بالقمع والتوهين ، فلا عجب أن نراه يرغم النفس بلا تردد وظهر ذالك في هذا البيت:

فقبلت من أقدامه وبساطه وقال لك البشرى بذا قضي الأمر

و القصيدة أعرب عن الصفات نفسية هي في الواقع صفات الأمير ذاته أسقطها على شيخه أو لمسها فيه واكتشف لما كان يتحلى به مما يجانسها.

صفوح يغض الطرف عن كل زلة لهيبته ذل الغضنفر والنمر

هشوش بشوش يلقي بالرحب قاصدا وعن مثل حب المزن تلقاه يفتر

فلا عضب حاشا بأن يستفزه ولا حدة كلا ولا عنده ضر

لنا منه صدر ما تكدره الدلا ووجه طليق لا يزايله البشر

دليل لأهل الفقر لا عن مهانة عزيز ولا تيه لديه ولا كبر

وما زهرة الدنيا بشيء له يرى وليس لها يوما بمجلسه نشر

[1]- المرجع نفسه ص175

حريص على هذي الخلائق جاهدا رحيم بهم بر خبير له القدر[1]

بل إن القصيدة لتوعز ببعض ما كان الأمير يتوق إليه وهو أن يوهب القطبيه فقد أشار في كتاب الموافق بما يفيد أن وعيه ويقينه من الدرجة التزكية التي انتهى إليه في سيرته ومن خلال مرصوده الجهادي قد هيأه لأن يكون من أولئك الأفراد الذين يبرهم الله ، ويهيئ لهم السبيل إلى تكريم والكرامة بل لقد ورد في أشعاره بعض ما يؤكد ذالك ، فقد جاء في قصيدته الفخرية " توسد بمهد الأمن ....قوله :

وإني لأرجوا أن أكون أنا الذي ينير الدجى بالسنا بعد مالوى

من هنا فإننا نقرأ كثيرا مما جاء في حق شيخه الفاسي على أنه صدى كما كان يقر في النفس والمواجد من مطامح ارتقائية روحية.

كساه رسول الله ثوب خلاقه له الحكم والتصريف والنهي والأمر

وقيل له إن شئت قل قدمي علا على كل ذي فضل أحاط به العصر

فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر

وينعطف مرة أخرى بالسياق ليؤكد نفاسه الحظ الروحي حيال الحظوظ الدنيوية الزائدة:

وذا وأبيك الفخر لا فخر من غدا وقد ملك الدنيا وساعده النصر

وهذا كمال كل عن وصف كنهه فمن يدعي هذا ، فهذا هو السر[2]

فالأمير يتفنن في الحديث عن المعرفة الكشفية ، بوصفها النعمة التي يهبها الله لمن كان ذا عزم ومحضوظية ، ويأخذ الخطاب سياقا استعاريا فيتحدث عن معنى الفتح والكشف بمعنى أن العبد ينفتح

[1]- المرجع نفسه 176

[2]- المرجع نفسه ص177

بعينه على دائرتان : أحدهما تسمى دائرة العين الصغرى، فيها يرى المحسوسات، من وراء كثائف الحجب الحسية ، أشخاصا معينة ، فلا تحجبة الجدارات ، ولا البعد ، ولاشيء من ذالك.

أما الثانية، فتسمى دائرة العين الكبرى ن فيها يرى البرزخ ، والملكوت، وعوالم الارواح ويطلع على الجنان، والنيران ...وهذا كله من خلال استدعاء دال الخمر.

معتقة من قبل كسرى مصونة وما ضمها دون ولانالها عصر

ولا شأنها رزق ولا سار سائر أجملها كلا ولا أنا لها تجر

وفي غضون ذالك لا يكف الشاعر عن تبين النهج السلوكي المتجرد والمتناهي في إخلاصيته الذي سار عليه حتى نال مانال من النعم:

وملنا عن الأوطان والأهل جملة فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصر

ولا عن أصحاب الدوائب عن غدت ملاعبهم مني الترائب والنحر[1]

وهكذا يمكن القول أن الغنائية قد بلغت مستوى رفيعا في إعرابها عن التجربة المعرفية ، ويمكن الخطاب بفتوة وبنثرية لم تفقده أدبته ولا هدرت جماليته ، وإنما عصرنتها، فالقصيد من هذا الجانب يعد من طلائع الشعر المعاصر لا سيما مستوى تقنية الأداء والتبليغ.

أما المقطوعة الأمير التي عنونها "حديث العجب " فإنها تطرح فلسفة الشاعر وقوله بوحدة الوجود . وقد أخذت السياق الاحجية سبب غموض فكرتها المؤمنة بأن المخلوقات الإنسية مترابطة في وجودها، وأن الأولية والتسلسل السلالي هو ظاهرة لا علاقة لها بحقيقة الخلق ووحدة الكيونية، فلا غرابة وفق هذه النظرة ، أن يكون الوالد جدا سبق ميلاد أسلافه الأولين بدهور.

حديث العجب

[1]- المرجع نفسه ص178

لا تعجبوا من حديثي جلّ عن عجب حقيقي قولي لا لغو ولا كذّب

ولدت جدي وجدته وبعدهما أبي تولد عن أمي وأي أب

وبعد ذا ولدوني بعد كوني أنا وولدي البر تومان في صلب

وكنت من قبل في الجحور ترضعني بطيب ألبانها الأمات لا ترب

وليس يدري الذي أقول غير فتى قد جاوز الكون من عين ومن رتب [1]

ومن هذه الأبيات نستخلص فكرة ترى المخلوقات ذات واحدة موصولة بالخالق فالطينة التي فطرت منها النفوس واحدة والطابع الرباني فريد ،والسيولة الزمانية لادخل لها في مشيئة الله القاضية بذالك ، وقد ترددت هذه النظرة في أشعار أهل السلوك من الأمثال ابن القارض وابن عربي وغيرهم.

أما في مقطوعة" يا عابد الحرمين " التي بعثها الأمير لكاتبه "قدور بن رويلة "حين جرح في إحدى الوقائع برصاصة أصابت طرف أذنه فتذكر آنذاك كاتبه الذي ارتحل إلى المدينة المنورة يتعبد في المسجد النبوي ، وهذه المقطوعة تنتسب "للفضيل بن عياض" والأمير كنى بها عن حالة مع كاتبه حيث يقول الأمير :

يا عابد الحرمين

ياعبد الحرمين ، لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا ، بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا، يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب [1]

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج- ت- وشرح وت،د:العربي دحو،ص:119

فالأمير يؤكد من خلال هذه الأبيات رجاحة الجهاد وميزته على غيره من الشعائر وقد رأيناه يفيض في الحديث عن هذا الفضل الذي اختصت به فريضة الجهاد ، في كتابته" الموافق" ، بحيث ألفيناه يفصل القول في الموضوع ويميز بين رتب الجهاد ويتأول بكثير من العمق والموضوعية معنى الجهاد سلما وحربا.

ونلاحظ أيضا أن المحبوب في أشعار الديوان التصوفية لاينبغي إلا أن يكون هو شخص الرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأبيات التي يكتفي فيها الشاعر بلفظ المحبوب عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

قد طاب في طيبة الغرا مقامكم جوار محبوبنا من كنت ترقبه

وعلى غرار تناول أهل العشق نجد الأمير يصف وطأة الضعن وما يتركه موقف فراق الأحبة في النفس من تباريح.

أما مقطوعة "أنا حق" فهي تعتبر نظرة شاعر الصوفية في وحدة الوجود ،فهو يرى نفسه البشرية جزاءا من الذات الإلهية حيث تذوب ذاته البشرية وتغدو ذاتا روحية .

أنا حق

أنا حق، أنا خلق أنا رب ، أنا عبد

أنا عرش،أنا فرش وجحيم، أنا خلد

أنا ماء ، أنا نار وهواء، أنا صلد

أنا كم ، أنا كيف أنا وجد، أنا فقد

أنا ذات ، أنا وصف أنا قرب ، أنا بعد

[1]- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :د:زكريا صيام :ص116

كل كون ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد[1]

فالحق نور من أنوار الله سبحانه وتعالى تسقى به ذوات أهل الحق فتشعشع أنوار العارف في ذواتهم وإن الباطل ظلام تسقى به ذوات أهل الباطل فتسود عقولهم وتعمى أبصارهم عن الحق وتصم آذانهم عن سماعه، بل لا يقع في عقولهم ولا يقع في عقولهم ولا يخطر ببالهم وإنما الحق عندهم بمنزلة شيء في طي العدم لم يسمع به قط فأغفلتهم عن الحق كغفلة ذوي العقول عن مثل هذا الذي هو في طي العدم على الصفة السابقة.

أما الحق والخلق: هو ماثم إلا حق وخلق ، كما أقبلت على شيء أعرضت عن آخر كذالك لاراحة مع الخلق فارجع إلى الحق فهو أولى بك إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدت من الحق وإن عاشرتهم على ما أنت عليه قتلوك فالستر أولى وأيسره أن تكون كائنا بائنا[2]

أما قصيدة "أرى الذي أفناني" التي يقول فيها الأمير:

"أرى الذي أفناني"

أرى الذي أفناني سيخلفني بعد يقوم برسمنا فيشمله الحد

لذالك أرى اسمه يعين رسميا يجيب إذا دعا لا رد ولا جحد

لذالك بالهم يدعونه عبد القادر ولم يبق إلا قادر ماله عبد

لقد بد من قد كان من قبل بائدا وزال خيال الظل وارتفع لسد

وزال عن العقل المصون حجابه فصار ظلالا مايراه له رشد

فلست أنا ذاك الذي تعرفونه ألا فاطلبوا من ذا يكلمكم قصد

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ،ج – ت- ش و ت، د:العربي دحو ،ص118

[2]- موسوعة الطرق الصوفية ،تأليف دراسة وتحقيق محمد بن بريكة:دار الحكمة- الجزائر ،الجزر الأول:ص316-318

ولستم أنتم الذين عرفتهم فما عمركم عمرو ولا زيدكم زيد

لقد ضاف صدري بالذي أنا واحد وتعبيري ما يفي فيبدو ولا يبدو

ألا فاعذروا من داق أن صاق صدره كما أن من قد ذاق عاذركم يغدوا [1]

في هذه القصيدة نجد الذات تتحد عن ذاتها لأن الموقف زج بالذات في لحظة تأملية أدركت في ضوئها علاقة الاكتناف والفناء التي تربط العبد بالخالق ، ولما كانت الحال التي يعرب عنها الشاعر معقدة وخارقة ونابية عن المنطق والمعقول ، فقد جنح به الموافق غلى الاعتراف بانبهام الحال في حسه ومداركه ، الأمر الذي تعذر معه الإعراب بدقة عن الموفق ، أما في البيت الثامن الذي يقول فيه :

لقد ضاق صدري بالذي أنا واجد وتعبيري ما يفي فيبدو ولا يبدو

لقد انتهى به الموقف إلى هذا الحد من الوعي الذي لم يعد به هو و إنما غدا شيئا آخر،شيء كلي لا يتجزأ ولا يتماهى في هوية معينة ومحددة باسم أو صفة إنه موقف انكشاف لحجاب عن العقل وتبلج الحقيقة بنورها أمامه، إضافة إلى أن موقفه المتحفظ إزاء العقل سيتكرر مرات عديدة في قصائده.

كما نجد قصيدة "أيا أنا" تعرب عن هوية من وجهة عرفانية ، فهي تتحدث عن وحدة الوجود كما يفهمها الشاعر، ونرى أن الخطاب فيها جاء يزيل الحدود بين العبودية والمعبودية، من نفس المنظور ألبدئي، حيث يقرر أن الظواهر منوطة بأصلها:

"أيا أنا"

أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت ويا أنت من تكون إن لم تكن أنا

مابالكم قلتم إله وأعبد؟ فكثرتم لذالك طاشت عقولنا

[1]- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري :زكريا صيام :ص:138

إذا ارتفعت من بيننا العين والأنف فقد رفع الستر المفرق بيننا

وذالك حين لا أنا لك عابد ولا أنت معبود فزال حجابنا[1]

ويمكن من جهة أخرى تشغيل بعض المنطلقات التي تقوم عليها رؤية الوجودية، فهي رؤية تقصى العقل عن الخوض في موضوع الإلهيات ولا ترى له جدوى في أن يتدخل في مسائل الربوبية فالعقل مجاله مادون ذالك ، لأنه إن خاض في أمور ما بعد الحسية، فسوف لن يخرج بطائل، لأنه مهيأ أصلا لمجال غير محال الميتافيزيق.

وهناك قصيدة " تجلي لي المحبوب" التي جاءت تتواجد بحب الله ورسول الله، وتتدفق عاطفة، فالقصيدة تستحضر رموز العشق كما شاع بهم الخبر، لتكشف عن النهج العشقي الذي كرع منه الأمير هو أيضا:

تجلى لي المحبوب

تجلى له المحبوب من حيث لا يرى فأعجبه أراه من حيث لا أرى

وغيبتي به فغاب رقيبنا وزال حجاب البين وإنحسم المرا

فصرت أراه كل حين ولحظة وقد كان غائبا وقد كان حاضرا

وما عرف الخلاق إلا بجمعه لضدين من كل الوجوه تنافرا

وكم من شهيد للغرام مشاهد لبعض الذي شاهدت مات فاقبرا

وذا قيس عامر تخيل نورنا في ليلى فمات والها متحتيرا

وقد شرب الحلاج كأس مدامة فكان الذي كان منه مسطرا

[1]- المرجع نفسه: ص301

وأني شربت الكأس والكأس بعده وكأسا و كأسا شيا ما أنا حاضرا[1]

ولقد ذهبت الأريحة الروحية بعيدا بالأمير في هذا القصد ، وتماس في بعض منعطفاته مع خطر الافتضاح ، لكن الأمير الذي عاش التجربة بوعي وتمالك واستعداد قلبي لم ينله ما نال أصحاب الشطح ، وهو ما جعل التجربة العرفانية عند الأمير تتميز بعقلنة واتزان فهي ارتقاء فتح معالم التأمل المثبت أمام السالكين وأبعدهم عن مخاطر الزلق والتورط.

ومازال يسقيني ومازلت قائلا له زدني ما ينفك قلبي مسعرا

وفي الحال حال السكر والمحور والفنا وصلت إلى إلا أين حصا ولا ورا

وما يمكنني قوله عن هذه القصيدة أن الأمير وصل من خلالها إلى نتيجة، تنساق مع النظرة القرآنية ، إذا هي بعض ما يفسر به قوله تعالى " إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى".[2]

ثم إن الأمير عبد القادر بهذا التصريح يكون من أوائل المسلمين الذين دشنوا حوار الديانات في العصر الحديث، وأعطوه المحتوى السماوي السامي ، إضافة لهذه القصيدة نجد أيضا قصيدة "يا من غدا"تثمن الرؤية القلبية وتنهى عن النفاذ بالعقل إلى عوالم الغيب والملكوت فقد تعرض الشاعر في هذه القصيدة وبشيء من التركيز عن الخصوصية الشأن الغيبي ، حيث لا قدرة للعقل حيال مجاهل الغيب، يقول:

يا من غدا

يا من غدا عابد الفكر فقف فأنت يا غافل على الشفا حرف

جعلت عقلك هاديا ونور الهدى أضلك العقل أيقن أنت في تلف

[1]- المرجع نفسه ص:156

[2]- الأمير عبد القادر الجزائري الشاعر:د:عشراتي سليمان:ص:187

حكمت عقلك في الرب العظيم فما تنفك تحكم فيه حكم ذوي سرف [1]

ثم الشاعر يعرض للفذ التي يتناول بها المتعقلنون مسائل الغيب والتي لا تزيد إلا تيها وظلالا.

تقول ليس كذا وليس هو كذا الحق في طرف وأنت في طرف

قيدتهم مطلقا لا قيد بحصره القيد وليس الله كالهدف

ثم يبين حقيقة تباعد الرؤية المتعلقة وتباينها مع الروح الإيمانية :

الحق في مشرف والعقل في المغرب شتان مابين ذا وذا فلا تخف

ويوجه النظر بعد ذالك إلى النهج القويم الذي يكفل النجاة والطمأنينة :

عليك بالشرع فالزم طريقته فحيثما أسار سر وإن يقف فقف

فمن أسس العقيدة العرفانية :

أن معرفة الله لا تحقق، لأن ذاته العلية فوق مداركنا المتعودة على التشخيص والتصوم الحسيين ، فمعرفة الله الممكنة هي معرفة صفاته التي أخبرنا عنها ومعرفة أسمائه كما أثبتها لذاته ،أما ما عاد ذالك فلا يستطيع النفس البشرية أن تدرك الماهية القديسية ولا كيفات التماهي، والحيرة حال لا تنفك عنها نفس السالك ، فمهما ركن إلى اليقين فأنسيته لا تفتأ تنزع به إلى الحيرة وربما عبرت قصيدة الأمير "فيا نور بلا شمس" عن هذا الوضع المتبلبل الذي يطرأ على الروح أحيانا ، فيعكرها:

أيا حيرتي يا دهشتي يا حرف ما له مقر

لقد حيرتني حتى في حيرتي وفي أمري

وحار كل ذي كشف وذي عقل وذي فكر

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج-ت- ش وت:د- العربي دحو،ص:127

وغاية الذي يبغي عرفانكم إلى خسر[1]

ومن المهم أن نلاحظ أن الأمير يبدي أحيانا ما بيدي أحيانا ما يوعز بالقول بالجبر ،فقد ورد في بعض مقطوعاته :

لا شك أني مجبور وجابري مجبور والجبر لا عذر به لجاهل يا مغرور

بالعلم منه قيده لا تبذيل لا تغيير والعلم أيضا تابع لمتبوع ومقصور

فكلنا في قبضته مقيد ومحصور فأين لوشيئا ولو أردنا فيه تخبير ؟

يا حيرة العقل ويا ظلمة ما لها نور سوى الذي عرفه كشفا فذاك مبرور

فحقق الأمر تفز بالعلم عندي مدخور وتنجو مثل من نجا والذنب منك مغفور[2]

والواضح هنا أنها حيرة لا دخن فيها ولا تأثيم ، إذ الحيرة كما عرفت قديما لدى فرقتها ، فكانت درائعية ، تبرئ ساحة المخلوق مما يفترق بدعوى أن القدر قضى بأفعالنا رغما عنا متناسية مسؤولية العبد ، وما أناط الله به من حرية وقلده من موثق وأمانة يحاسبه عليهما.

فجبريه الأمير كما نرى هنا هي خبرية فكرية سلوكية ، ومطمحه أن تتم المكاشفة فتحا وسنوحا بلا عناء أو كد ، ثم إن لنا أن نرى في ما تتنزل به ضمائر وعقول أهل العلم منا توسعا ومدا لحدود الفكر، وليس مسابا بالعقيدة ، إذ العقيدة مصونة بختم الفاتحة التي يقرأها كل مسلم صباح مساء ،في ذالك الأمي ، أو المتعلم ، كما يمكنني أن أحيل إلى الجوانب أخرى تتصل بعقيدة الوجود ، تناولها الشاعر في قصائد أخرى ، من ذاك قصيدة "لا شك أني محبور " فهي قصيدة تحدد فلسفة الوجودية ،

[1]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري :ج- ت- ش وت:د: العربي دحو ،ص:123

[2]- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ،د:زكريا صيام :ص:207

تلك فلسفة التي رأيناها بعيدا التطرق إليها في قصيدة " أمطنا الحجاب" وكذالك مقطوعة "الحمد لله" التي يقرر فيها وحدة الوجود .

كما يمكن أن نفسح المجال للأمير يتحدث عن شكل الجبر كما أوضحه في كتاب الموافق ، يقول الأمير : "رأيت في المنام واحد من إخوتي قال لي ما معنى قول الشيخ الأكبر الجبر الوجوبي والجبر المكروه ؟ وما علمت في أي كتاب ذكر الشيخ هذا اللفظ أو المعنى ؟ فقلت : الجبر الوجوبي هو جبر العبد بمعنى أنه يجب أن يعتقد أن العبد مجبور بالعلم الإلهي لا يمكن له أن يخرج عما سبق به العلم القديم ، والجبر المكروه هو الجبر الحق تعالى بعلمه فيكره أن يطلق هذا اللفظ عليه تعالى في مجالس العوام لما يؤدي إليه وإن كان حقا ، كما يكره أن يقال هو تعالى خالق القردة والخنازير والكفر ونحوه وإن كان حقا " .وهذه الأفكار نجدها في عدد كبير من قصائد الأمير ومقطوعاته.[1]

وأخيرا يمكنني القول أن تجربة الأمير التصوفية تجربة راسخة ومتميزة وتستحق الإنفراد بالدراسة وهذه التجربة بمخاضاتها الروحية والعاطفية والفكرية قد تحولت في قريحة الأمير إلى أشكال من الرؤى والتصورات والفذلكات والحيرة الفيزيقية التي تردد صداها في أكثر من قصيدة من قصائده،كما أن الأمير لم يسلك الطريق المعهود فينظم مبادئ وأسس لوجهة تصوفية ينصب من خلالها نفسه شيخا وسيحدث طريقه ، فقد كان يشب على تعاليم الطريقة القادرية ، لكن الزمن والتجربة عمقت حسه الإنساني وجعلته يتسامى إلى آفاق طرح الأسئلة المعلقة ، وإشهار الحيرة والفلق الوجوديين ، وكل ذالك دون أن تجمع به البواعث أو تفلت منه المقادة.

ومن هنا كان الأمير رجل فكر في تصوفه ، وكان رجل تصوف في فكره ، وتلك هي مميزات أهل الرجاحة العقلية ، إذ هم حتى حين تفيض بهم المدود وتستفزهم المفارقات التي تنبو أحيانا عن رؤيتهم

[1]- الأمير عبد القادر الشاعر:عشراتي سليمان،ص:185

وتستغلظ عن مساحة أفكارهم وعقولهم ، فإنهم لا يزلقون ، فقد ظلت العتبة التي يعثر حيالها الكثير من السالكين هي عتبة الكشف والشهود.[1]

ومن الواضح أن الأمير كان على تهيئ لاجتياز تلك العتبة وتعدي ذالك الامتحان ،الأمر الذي جعله يرتد من تجربة الإمحاء بالسلام كما أن شخصية الأمير تبرز لنا من خلال أشعاره ، وذالك يعود إلى الأمير حين كان ينظم قصائده ويودعها خلجاته وخطراته كان يصدر عن حس صادق ويعرب عن مشاعر لا يخالطها الزيف وهو نهج سلوكي يتوافق وورعه ، إذا أن الحس الأخلاقي كان مقوما شبت عليه النفس ، لذا فالشعر عند الأمير ، إنما صدقا وموضوعية.

وأخير بعد التحليل والدراسة وقفنا على رجل متصوفا أدرك لنا الصّفة التي تعلقت بفضائل الإسلام وروح التقوى التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم لأن الأمير عبد القادر بالإضافة إلى كونه رجل ورع وتقوى واستقامة وزهد فهو كذالك رجل علم ومعرفة وجهاد ومحاورة ومناظرة الآخرين فهو الذي حاور أقرانه من الصوفية وحاور غيره من أهل الملل والنحل (النصارى) كما يبدو رجل جهاد صنديد قوي خلع ثوب المهادنة والمجاملة ضد الاستعمار بل حاربهم وضحى في سبيل الجزائر إلى أن وجد نفسه لا يمكن أن يواصل عمله العسكري لينتقل إلى الجهاد السياسي وبفضله يؤسس للجمهورية الجزائرية الحديثة تحت لواء القادرية المتصوفة وشعره ينطق بذالك.

[1]- المرجع نفسه ص:201

الخاتمة

وختاما لهذا العمل نحاول فيما يلي أن نرصد أهم النتائج المتوصل إليها ،ونجملها في:

* يعتبر التصوف جانبا من أخص جوانب الحياة الروحية في الإسلام ،وهو تجربة وسلوك قبل أن يكون مذهبا وفكرا ،وذلك لأنه يعد تعميقا لمعاني العقيد ،واستنباطا لظواهر الشريعة ،وتأملا لأحوال الإنسان في الدنيا ،وتأويلا للرموز.

*إن العلاقة بين الشعر والتصوف عميقة جدا ،لأن الشعر في حقيقته يتجاوز الواقع في المكاشفة عن كل ما هو غامض ، فالشاعر حين يجسد رؤيته بما يكتشفه في ذاته من انفعالات واضطرابات ،فهو أثناء هذه اللحظة كذلك الصوفي في تأمله وتفكيره الروحاني ،إذ أن كلاهما ينساح من أي شيء كائن ليتفرد إلى الجوهر الإنساني ،وهكذا يتم استحضار الإلهام لإبداع أجمل القصائد.

* تتميز المعرفة الصوفية بانعدام الوسائط والمقدمات لأنها تسري من الله إلى العبد ،وهي موهبة يمنحها الحق لمن يشاء من البشر ويرتفعون بها إلى درجات الكمال تجسد مراتب ودرجات قدرتها العناية الإلهية أيضا.

* التصوف كان له دور كبير في نشأة حركة المقاومة ضد الاستعمار ،كما أنه ساهم في الحفاظ على وحدة المجتمع والتمسك بالدين والعقيدة.

* إن تصوف الأمير عبد القادر هو تصوف متزن ومعتدل ومتسق من الفهم الصحيح للدين والإتباع الحقيقي للعقيدة الإسلامية ،ورغم كل هذا فإن الأمير لم يمنعه تصوفه من خوض معركة الحياة ،فقد كان القائد المغوار الذي حارب الجيوش الفرنسية بحنكة وخبرة لا مثيل لهما ،وهو السياسي المتمرس والعالم الصوفي الفرد والأديب المبدع ،والأب العطوف الحنون والعالم الذي يقصده الطلاب المعرفة من فج قصي.

*كان الأمير رجل فكر في تصوفه وكان تصوف في فكره وتلك هي مميزات أهل الرجاحة العقلية إذ هم حتى حين تفيض بهم المدود وتستفزهم المفارقات التي ثبوا أحيانا عن رؤيتهم وتستغلظ عن مساحة أفكارهم وعقولهم فإنهم لايزلقون.

*لقد خاضت أشعار الأمير عبد في مجال الروح والغيب وابتعدت عن نطاق التوسل واستنزال اللطائف ،تلك الحال التي رأيناها تغلب عليه في عدد من نصوصه ،وفي ذلك دليل على صلابة عود واستحكام قوة أتاحت له أن يلحق في فضاء المغامرة و الميتافيزقية دون أن يخشى الوقوع لأنه كان على عقيدة غاية في اليقين .

قائمة المصادر
و المراجع

فهرس المصادر والمراجع:

المعاجم :

1- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم لسان العرب ،للطباعة والنشر – بيروت- د.ط.ج7

2- إبراهيم مصطفى ،أحمد حسن الزيات،حامد عبد القادر ،محمد علي النجار:معجم الوسيط ،المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر – تركيا،ط:ثانية ،ج1

3- بطرس البستاني :محيط المحيط،مكتبة لبنان –ناشرون ساحة رياض الصلح- بيروت-مطابع: برس. تبو-

المصادر والمراجعّ:

1- الأمير عبد القادر الجزائري :المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، المجلدات الأول والثاني والثالث :الطبعة الثانية ،مراجعة وتصحيح لجنة من علماء دمشق منشورات دار اليقظة – دمشق1966

2- الأمير عبد القادر الجزائري :ذكرى العاقل وتنبيه الغافل تحقيق وتقديم الدكتور:ممدوح حقي ،منشورات دار اليقظة العربية – بيروت:1384هـ /1964م

3- الأمير عبد القادر الجزائري :تحفة الزائرفي تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي ،الطبعة الثانية ،منشورات دار اليقظة العربية ،بيروت:1384هـ- 1964 م

4- ابن خلدون :شفاء السائل لتهذيب المسائل ،نشر وعلق عليه الأب غناطيوس عبده خليفة اليسوعي،المطبعة الكاثوليكية ،بيروت :1959م

5- ابن الفارض :جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض ،عني به:أمين خوري،طبعة الثانية ،المطبعة الأدبية ،بيروت 1888م.

6- أبو القاسم القشيري :الرسالة القشيرية ،عليها تعليقات القاضي زكريا بن محمد الأنصاري:دار جوامع الكلم ،17شالشيخ صالح الجعفري :القاهرة

7- أبو نصر عبد الله علي السراج الطوسي: كتاب اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ضبطه وصححه كامل مصطفى الهنداوي ،منشورات محمد علي بيوض لنشر كتب السنة والجماعة ،دار الكتب العلمية :بيروت –لبنان ،الطبعة الأولى :1421هـ 2001م

8- إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر،دار الإمام المجدد القاهرة- مصر- الطبعة الأولى :1426 هـ -2005م

9- بوداوية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي، دار القد س العربي،الطبعة الأولى :2009م.

10- عشراتي سليمان:الأمير عبد القادر الشاعر مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة الما بعد،دار القدس العربي،دار أطفالنا :وهران –الجزائر- ،الطبعة الأولى .

11- عشراتي سليمان:الأمير عبد القادر المفكر مساجلات في قضايا الفكر والمعرفة وفقه الخطاب القرآني:دار الغرب للنشر والتوزيع ،طبعة 2002م

12- فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا ،صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م.

13- محمد بن بريكة :موسوعة الطرق الصوفية الإيضاح والبيان لمصطلح أهل العرفان دار الحكمة – الجزائر2007 م،الجزء الأول والثاني:طبعة خاصة .

14- مصطفى بن التهامي :سيرة الأمير عبد القادر وجهاده،تحقيق وتقديم وتعليق ،الدكتور يحي بوعزيز :دار البصائر ،طبعة خاصة 2009.

15-ديوان الشاعر الأمير عبد القادر :جمع وتحقيق وشرح الدكتور العربي دحو:دار ثالة 2007م:طبعة الثالثة.

16- ديوان الشاعر الأمير عبد القادر:تقديم وشرح وتعليق الدكتور ،زكريا صيام:ديوان المطبوعات الجامعية .

17- مؤسسة الأمير عبد القادر :الحياة الروحية للأمير عبد القادر:موفم للنشر – الجزائر 2011م.

المراجع المترجمة:

1- شارلز هنري تشرشل:حياة الأمير عبد القادر ترجمة وتقديم وتعليق :أبو القاسم سعد الله ،عالم المعرفة الجزائر ، طبعة خاصة 2011م.

2- مارتن لانغ:ما الصوفية؟،ترجمة فاروق ،دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع سورية دمشق ،الطبعة الأولى 2014م.

الدوريات :

1- الثقافة :مجلة تصدرها وزارة الثقافة – الجزائر – عدد خاص بالذكرى المؤوية لوفاة الأمير عبد القادر : السنة الثالثة عشر -75رجب،شعبان 1403هـ ماي جوان 1983م :منشورات السهل – الجزائر:2009،مقال :دكتور عمار طالبي.

الرسائل الجامعية :

حفيظة سليماني :المنحى الصوفي في الشعر العربي الحديث رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث ،إشراف الأستاذ الدكتور : محمد عباس السنة الجامعية 1424هـ 1425هـ/2003م- 2004م ،جامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان.

الملـخص:

التصوف مذهب ديني سلوكي تعددت منابعه واتجاهاته ، ومنه التصوف القادري الذي ينتمي إليه الأمير عبد القادر الشاعر والسياسي والمجاهد والمفكر والتصوف ،ظهر تصوفه في سلوكه وزهده وشعره لذا كان لنا استقطاب تصوفه الشعري ذو المنبع السني القريب من الزهد.

الكلمات المفتاحية :

التصوف ، شعر ،سياسة ،سنة،جهاد ،زهد،تحليل ،فهم.

Soufisme doctrine religieuse des cours supérieurs variés de comportement et Atjahth et du mysticisme Qadiri, qui appartient au poète le prince Abdul Qadir et combattant politique et penseur et le mysticisme, Tsofh est apparu dans son comportement et son ascétisme et ses cheveux pour que nous Polarisation Tsofh poétique avec un sunnite amont près ascétisme.

Mots-clés:

Mysticisme, poésie, politique, années, Jihad, la tempérance, l'analyse, la compréhension

Sufism is a religious religious doctrine whose origins and origins have varied. Among them is Sufism al-Qadri, which belongs to Prince Abdul Qader, the poet, politician, Mujahid, thinker and Sufism. His Sufism appeared in his behavior, his asceticism and his poetry, so we had the polarization of his poetry.

key words :

Sufism, poetry, politics, year, jihad, asceticism, analysis, understanding